المتألمُ المتأملُ

حسـام آل زوين

المتـألـمُ المتـأمـلُ

روايـة

الاهـداء إلى ...

كل من سعى إلى مبادئ الحق والعدل والكلمة الحرة ، وضحّى من اجلهـا !.

تقديم
المتألمُ المتأملُ

ما بينَ ليلتين من ليل العراق، خُلق هذا الحرف...

في الأولى، كان صراخُ امرأة تُخفي دمعتها عن الجدران، تنادي غائباً لن يعود.

وفي الثانية، كان رجلٌ يسند روحه إلى كتف الظل، يُقلّب خرائط الهرب كمن يفتّش عن مخرجٍ من قفصٍ لا يرى قضبانه، لكنه يشعر بها تُطبق على قلبه.

ما بين ليلتين، يُولد المنفى.

هذه ليست رواية، بل جُرحٌ طويلٌ لم يندمل، امتدّ على هيئة طريقٍ وعرة، حفرتها أقدام الهاربين من الجحيم، وسُفدت بدماء الذين لم يجدوا سوى الجبال ملاذاً حين ضاقت الأرض بما رحُبت.

هنا، حكاية رجلٍ ما سقط من ذاكرة وطنه، بل دُفع للسقوط دفعاً، ووجد نفسه، ذات فجرٍ جبليٍّ بارد، يحدّق في السماء محاولاً أن يفهم: كيف لوطنٍ يُنجب أبناءه من رُحم العذاب، أن يأكلهم حين يشتد عودهم؟

لقد سار بطلنا، لا على قدمين، بل على رماد الطفولة، وبين أشلاء الرفاق، ومجازر القرى، وصدى أسماء لم تُسجّل في دفاتر التاريخ، سار بخطى ثقيلة، يتقافز بين موتٍ مؤجَّل وآخر وشيك، حالماً بكلمة سرٍّ قيل له إنها طريق الخلاص.

لكن، أي خلاصٍ ذاك الذي يمرّ عبر حدودٍ ممزّقة، وكهوفٍ تعجُّ بالخوف، وأيامٍ لا يعرف فيها من يقاتل مَن، ولا لمَ؟.

لم يكن بطلاً كما تصفهم الروايات. لم يمتلك إلا قلباً يدقّ خارج إيقاع القطيع، وعقلاً ما أطاق أن يُصفّق للمشانق. كان يرى أن الوطن ليس اسماً على الخارطة، بل رعشة في الصدر، ودمعة تتسلق العين حين يُغنّى النشيد، وصرخة تُقال في وجه من يُراد له أن يكون إلهاً صغيراً يوزّع الحياة والموت بمزاجٍ مريض.

هرب... لا جبناً، بل لأن الشجاعة أحياناً هي أن تختار طريقاً يُوجعك أنت وحدك، لا أن تُوجع به الآخرين. عبر الجبال، جاع، وخاف، وتخفّى، نام بين الصخور، وأفاق على أصوات الطائرات لا تعرف الفرق بين مقاتل ومارق. سار نحو المجهول، لا حبّاً به، بل لأنه كان النقطة البعيدة التي قد تمنحه فرصة التنفس... فقط أن يتنفس، ثم عاد.

عاد حين سقط الوحش الذي أحرق البلاد عقودًا. عاد حاملاً قلبه كما تركه: مكلوماً، منتظراً أن يجد ما يُبرر كل تلك الدماء، كل ذلك البرد، كل تلك الأحلام التي جُمّدت في ممرات الموت.

لكن البلاد لم تكن تنتظر أبناءها.

وجد نفسه غريبًا في مدينته، مُحاطاً بوجوهٍ لم تُقاتل، لكنها تحكم. وجد أن الخيانة صارت وجهاً مقبولاً، وأن المصلحة لبست زيّ الشرف، وأن الذين استشهدوا وماتوا لا يذكرهم أحد، لا شارع باسمهم، ولا حتى خبرٌ في صحيفة. لقد سرق الطغاة الماضي، لكن من سرق الحاضر كان أكثر مهارة، وأكثر خبثاً.

فماذا يفعل من قاتل لأجل فجر، حين يجد الشمس وقد بيعت في المزاد؟.

جلس الرجل، بعد كل ذلك، على أطراف الذاكرة، وأخذ يتأمل. صار يرى نفسه طفلاً في الأزقة، شاباً في المنافي، مقاتلاً في الثلوج، ومنفياً في وطنه. صار المتألم المتأمل، لا هو قادر على النسيان، ولا هو راغب في العيش دون معنى.

هذه الرواية ليست للتسلية. إنها نايٌ مكسور يعزف على وترٍ وحيد. هي مناجاة من خسر كل شيء، ثم جاء يكتب لا لينتصر، بل ليفهم.

أن تفهم، في هذا البلد، نعمةٌ ثقيلة، تكلفك كثيرًا.

أن تتأمل، بعد أن تتألم، فهذا هو النبش في الرماد بحثًا عن جمرة لا تزال حيّة.

فهل تجدها معه؟

اقرأ... وستعرف.

الكاتب والناقد والباحث

محمد علي محيي الدين

بابل - العراق

المتألمُ المتأملُ

مخـاضٌ يُطـاله النـور !

بعد روايته البِكْر لقد قصـدها يوما يطلّ الكاتب حسام آل زوين برواية جديدة تشكّل شبه خلاصة لواقع ما قبل قيام الجمهورية في ١٩٥٨ وما بعد الحرب على العراق ٢٠٠٣ ، وتكالب دول الرأسمال العالمي ولغـز المخطط الاستعماري لنهب ثروات البلاد فضلاً عما تمخض غزو العراق من واقع جديد طرح إشكالية دعوة أصحاب الكفاءات من أساتذة ومهندسين وأطباء وعلماء باحثين في شتى مجالات الحياة والتطبيقات المعرفية الحديثة، دعوة خالصة ،كما تبدو، لشمول المغتربين بتشريفهم للعودة إلى العراق بعد زوال أبشع حكم دكتاتوري طال العديد من المناضلين الذائدين عن كرامة البـلاد.

اشتغل الكاتب على آلية سـردية تحفز لدى القارئ شعورَ الانتقال من مشهد إلى آخر بقصدية فنيّة ليست بالتخيلية بقدر ما لامست الواقع الحي المُعاش ، كما عمد الكاتب لاستيلاد نمطٍ جديد من السرد الروائي عابرا التجريب لخلخلة الجاهـز من السرد البعيد عن المعالجة العضوية بكل ما تعرض له مبدأ صراع الطبقات وبشاعة المحاولات البائسة لتمييع دور الطبقة العاملة على مستوى صيرورتها التاريخية في قيادة المجتمع.

لقد اختصر كاتب الرواية كل الرواية بمسلّمتين لغويتين متلاعبا بحروفهما بفنية عالية ، وكأنه يحضّر لولادة توأم يحمل متساوقين ديالكتيكيين : الألم ، الأمل . توريَة مذهّبة بضوء الحقيقة التي لابد منها وإن تأخرت .

وطنه،مدينته، بيته ، حلم لمدينة فاضلة ... تنتفي فيها الشرور، الآثام، الجرائم ، الفساد ، الظلم ، لا قتل ولا عـدوان ، ساكنوها اناسٌ طيبون يعيشون في سلام ووئام لا يعرفـون غـلّا ولا حسـد.عاشها بحذافيرها ،

بدرابين البيوتات المطلّة والحانية على بعضها البعض، بطيبها وعطر ماضيها،جامعا كل معاناة شغيلة اليد والفكر، معاندا منتصرا على كل ما يعترضه من مصاعب تعذّر على قدره النيل من روحه العنود على الحق ، فراح يفترس جسده جزءً جزءً !...

قلة من الروايات السردية تجمع ما بين الواقع المؤلم وأسلوب المذكرات والمزج ما بين قادة الحزب (سلام عادل) وروح كاتب الرواية "عادل"، سيما التقارب الانتمائي والروحي المركب.

عمدتُ مستفزاً، الست القائل ؛ لم يعد ذلك الصباح يزهو بأغاني فيروز ويبهج النفوس وتصغي لها الاذان ؟.

فما كان منه إلّا وصوّب لي تزاحم متاعبي الجسدية واستفزازي البريء له ، في أنه باقٍ على العهد ولن يتخلى عن حلم جمهوريته... ومما عزز من رأيه في بشارة الضوء،تعقيبه، كوننا ما نزال معاً...وما يزال " عادل" على الرغم من آلامه المبرحة ساندا جراحاته بيديه متأملاً عنيداً لا يأبه بما فعلت به الغربة وسنواتها العجاف ، تحلو له طيور النورس المرفرفة الأجنحة على ضفتي الفرات وتراقص شموع النذور والامنيات عند الغروب ... ومثله دجلة عند مدخل المتنبي حيث تجمعه سنوات الدراسة وحماس الطلبة ، فيما يتسللون فرادا تجنبا لعيون العسس،حتى يتيهون بين كتب المعرفة والعلم والآداب والفنون من غير أن ينتبه اليهم أحدٌ من الجهلة. هنيئاً للقارئ الحصيف مواصلة شم عبق هذه الوردة التي ما تخلى عنها شذى عبيرها.

صباح محسن جاسم
بابل - العراق

المدينـة الفاضلـة

مدينـة مثـاليـة من الاخـلاق والعـلم والروحـانيـات ، تنتفـــي فيها الشـرور والاثام والجرائم لا فساد ولا ظلم فيها ولا قتل ولا عـدوان ، وعند افلاطـون مدينـة يسـكنها اناس طيبـون يعيشـون في سلام ووئام لا يعرفـون فيها الغـل ولا الحسـد .

الشـيوعـية

نظام أجتماعي أقتصادي بني على الملكية المشـتركة لوسـائل الانتـاج في ظل غياب الطبقـات المجتمعـية والمـال ومنظـومة الـدولـة .

وتعتمـد مبـدأ :

كل فـرد حســب مقـدرتـه .

الى كل فـرد حسب حاجته .

١

لا يعرف كيف افلتوا من قبضة البازدار المترصدة للمسافرين الخارجين من عربات القطار باتجاه المدينة،ولولا تأخرهم لبضعة دقائق في العربة وذلك للتدقيق مع بعض الرفاق والاتفاق معهم حول الوجهة الحالية لكانوا قد وقعوا في شباكهم او في عداد سجناء" ايفين".

ما ان نزل عادل من العربة اولهم يتفحص المكان على طول الرصيف الذي توقف فيه قطارهم القادم من طهران حتى لمح من بعيد هيئة مجموعة فيما يبدو كانهم عراقيين امسكت بها دوريات البازدار، هي قوة الحدس !.

أمّا مناسبة الزيارة فهي ذكرى استشهاد الامام الرضا (ع) والتى تصادف في شهرصفرالمتزامن مع شهر سبتمبر من كل عام ، يتوافد الآلاف من الزائرين الى مدينة مشهد من كل انحاء البلاد وخارجها ومن كل الجنسيات والقوميات الايرانية والعربية والتركمانية والهندية والباكستانية والافغانية.

ناقشوا الامرعلى عجل واتفقوا على السير فرادا باتجاه الامام واذا حدث اي طارئ ما فيكون اللقاء عند الضريح في كل الاحوال ، اي بالاختلاط والتداخل في وسط الزائرين حتى مخرج المحطة ، وبهذه الحالة يصعب التشخيص من قبل البازدار الشباب ، وخصوصا مع اهل الجنوب (عربستان) المحاذين للشريط الحدودي العراقي والذين يرتدون الزي العربي رجالا ونساءا ويتحدثون اللغة العربية وبلهجة أهل العمارة ، تيقن عادل عندما انصت اليهم وهم في ممشاهم على الرصيف المؤدي الى عربات القطار .

ما ان خرجوا من العربة وتداخلوا في اوساط الزائرين ، حتى بدأت دقات القلب تزداد اضطرابا ونظراته كانها اشعة الليزر تخترق الحشود حتى بوابة المحطة وبدقة تتفحص المكان وخلوه من مجاميع البـازدار، وعلى ما يبدو انهم انشغلوا في التحقيق مع المجموعة التى امسكوها قبل دقائق وتوجهوا الى جهتهم،تمالك كل قواه وتمنى ان يكون سـوبرماناً يحط على البوابة ويفلت الجميع من قبضة هـؤلاء الهمج .

كان اول من خرج المحطة بقميصه الاسود بسـلام متجها نحو الضريح متابعا وصول الاخرين من المجموعة التى تخلف منهم النصير عماد (المشاكس) بعض الوقت يكحل عيونه ذات اليمين وذات الشمال بجمال بنات الجنوب من الزائرات،وهو المعـذور بين افراد المجموعة الانصارية ، والذي كان يردد :

- انا من جماعة جبر من بطن امه للقبر .

واخيرا هدأت دقات قلب عادل واضطرابه ، تنفس الصعداء للنجاة من قبضة البازدار ولسلامة تجمع رفاق المجموعة وتكامل العدد ، وهم في انتظارالـدليل وتوجيهاته والذي طـال انتظاره لفترة ما بعد الظهر .. انتابه القلق وساوره الشك ، حيث تبين بان الدليل كان منشغلا يراقب هذه المجموعة التى امسكت بها مفرزة البازدار نتيجة خطأ بسيط شكت بهم واودعـوهم النظارة .

اتضح من الاخبار بان هـذه المجموعة هم من الانصار زج بها في سـجن "ايفين" في طهران وكان من ضمنهم رفيق محامي مثقف من الاخوة الكـرد والاصدقاء عمل في القسم الكردي للاعلام المركزي للحزب .

يؤكد عادل :

- وباتباع التعليمات والالتزام بها باليقظة والحذر نجحنا بالإفلات من قبضة مفرزة البازدار موقتا .

ومن المفارقات وللغرابة يقول عادل :

- علمت بان اخي الاصغر عدنان الهارب من ازلام الامن والحرب والانفال في كردستان اعتقل في نفس المكان واودع السجن لفترة عام ونصف العام ، قدم الى مشهد بحجة الزيارة لايجاد منفذ يخرجه من ايران،بعد ان مكث عامين بانخراطه ضمن المجموعات الاسلامية الكردية في كردستان على الحدود العراقية الايرانية .

انتهى به المقام لاجئا في مدينة قم،ترك الاهل وتعليمه الثانوي، معيشته حد الكفاف ،يعاني من الامراض ، غير متزوج ومنقطع الصلة بالاهل والوطن .

أوضح عدنان لاخيه عادل بمعاملة هذه المجموعات لهم وكيف ذهبت وعودهم باخراجهم في مهب الوديان حال أعلان توقف الحرب :
- شاهدتهم بام عيني ؛ هم وعوائلهم في عيشة مترفة مرفهة من بيوت وسيارات في مدينة كرج غرب طهران ، منعمين بفيض الخيرات التى ينالوها من الاحزاب الاسلامية الكبيرة والتى تسديها ايران عليهم .

- االذهب اليهم واطلب المساعدة الطبية منهم !؟ ، أهم لا يعلمون !؟ ، لا والله انها عزة النفس تصدني ! .. .

يخاطب عادل نفسه :

- من الظاهر يا عدنان انت ايضا عنيد كأخيك ! .

- أكان من الممكن لهؤلاء الشباب ومن العدل ان يكرموا ردا لجميل العشرة التى قضياها معاً ايام الشتاء في جبال كردستان !؟ .

- كم من الهموم تساورك والالام ترهقك ياعادل ! .

اجتمع الدليل بالمجموعة وطرح عليهم الموقف الحالي بانه قد طرأ تعديل على مسار وجهتهم موضحا لهم :

-لاخذ الحيطة والحذر سوف نغير وجهتنا نحو الحدود وحركتنا محاذية للحدود الافغانية ، نظرا لهذا الانتشار الاستثنائي من قبل البازدار منذ اسبوعين،المهم نغادر المكان قبل الغروب،وضرورة الالتزام بالتوجيهات لكي لا تتعرض المفرزة الى الوقوع بشراكهم .

تفحص عادل وجوههم :
- الجميع ملتزم بالتوجيهات بعد الذي شاهدناه جميعا عند محطة القطار.
تحركت المفرزة وفق ارشادات الطريق وسلكوا باتجاه الشمال وبانت من جهة الشرق والشمال امتداد سلسلة المرتفعات الافغانية الايرانية التركمانية ، بطرق ملتوية وباطراف القرى ، يرتفع الطريق الجبلي المخيف الى اعالي السماء كانه سحابة في الفضاء ونهاية العالم بين هذه القمم بصخورها الملونة الحمراء وبشتى انواع الالوان المتممة الاخرى للحجر ينتهي بخيمة سيطرة للبازدار.

وتعتبر اخر نقطة كانها المنفذ المنقذ الذي طال البحث عنه طويلا لتائهين ضائعين فقدوا الامل في اخر الوادي . من خلال هذه النقطة بعد اجتيازها نزولا يمكن النفاذ الى القرى الحدودية ومن ثم العبور شمالا الى حدود الاتحاد السوفياتي .

خرج من الخيمة شابان مسلحان من البازدار بهيئة مترهلة ، لازال القلق والخوف يصاحب عادل بعض الشيئ ، تفحصهما بشكل جيد وتفحص الخيمة حيث لم يخرج من الخيمة شخص اخر ، واستعد لابعد الاحتمالات فيما اذا حصلت اشكالية ما، فيمكن الامساك بهما وادخالهما الخيمة ومن ثم الاستمرار بالنزول صوب الوادي . تسنى لعادل خلال بقائه في طهران بعض الوقت ان يتعلم بعض الكلمات وباللكنة الفارسية بأقتنائه كتيب لتعليم اللغة .

سـأل البـازدار افراد المجموعة ومن ضمنهم عادل :

- الى اين انتم ذاهبون في هذا الوقت ؟.

اجابه الدليل وبلهجة المنطقة ومعه اردف عادل ببعض الكلمات :

- نحن متجهين نمكث الليل عند اقربائنا في القرية عند اسفل الوادي ونعود غدا لزيارة الامام الرضا ، حيث لم نتمكن من المبيت في مشهد من الزحمة لكثرة الزائرين .

بعد انتهاء الاسئلة اشار البازدار الشاب لمرافقه القريب من الخيمة برفع العارضة لهم . انتزع الخوف والقلق من قلب عادل وهو يراقب ارتفاعها بعد ان امطرهم بكلمات الشكر باللغة الفارسية .

وصلوا القرية الاولى ثم الثانية انحرفوا عن الطريق وابتعدوا عن القرية الاخرى ونبح كلابها حتى اتضح امامهم فضاء واسع موحش بليل بارد يتوسطه ضوء القمر. اتفقوا علـــى اتجاه السير نحو تلك الحدود ، واسرعوا الخطى نحو الشمال الذي اشار اليه عادل بعد تخمينه وحصره الاتجاه الصحيح نحو نجم القطب الشمالي ومكانه في ذيل الدب الاصغر من خلال خبرته وقراءتهِ القديمة .

بعد لهاث وتعب وعطش ونقاش وخوف المجموعة بان اتجاههم المقترح يعيدهم الى الحدود الايرانية . بهذا الموقف وضح لهم عادل مؤكداً:

- أطمئنكم على صحة الاتجاه الذي ابلغني به الدليل وكلمة السر عند الوصول الى الحدود وانا اتحمل كامل المسؤولية ، فما علينا الا الاسراع بالسير قبل ان تطالنا شمس الصباح فنعرض انفسنا لمصيدة البازدار القريبين في المنطقة او للطيران الايراني . وبعد اقتناع الاكثرية من المجموعة بهذا الاتجاه نحو الحدود ، واصلوا السير خلف عادل لمسافة طويلة ، ورغم التعثر وظهورالتعب عليهم ظهر بصيص ضوء من على هذا البعد ، اكد لهم عادل ببشاشة بعد ان تأكد بحق من اشكال الاليات الروسية (ناقلة الجنود - الزيل) الواقفة خلف أعمدة السياج :

- انه ضوء (الرفاق) السوفيات، سوف نصل الحدود ويكرمونا بالعشاء ويزول التعب .

نعم .. استقبلهم الجنود المدججين بالسلاح مع الكلاب البوليسية الضخمة بعد توقفهم وتسليمهم " كلمة السر" وتفتيشهم وتجميعهم في مكان كراج الاليات البارد ، طلب منهم عادل ما يسد الرمق ، جلب الجنود الخبز الاسود مع الزبدة من مؤنتهم ، فنب قسم من الرفاق عماد وعبد الله على وجه التحديد يواصل خزره لعادل :

- أهذا هو استقبال الرفاق السوفيت،في العشاء الساخن والمكان البارد ، ومن يعلم فيما بعد ما هو المخبأ ! .

- أهذا هو التثمين المنتظر واللائق من بلد الاشتراكية لرفاق امضوا زهرة شبابهم بالذود عن افكارالعدل الاجتماعي والنظام الاشتراكي !.

- أيستوي قاطع الطريق ومهرب الحشيشة بالمناضل المضطهد !.

اختلف الرفاق في ردود افعالهم ما بين الضحك والاستهزاء والاشمئزاز والغضب والزعل والقبول والرضى والصمت والحسرة يندبون حظهم العاثر بعد كل هذه السنين من النضال ، وعبد الله يواصل خزره بعيونه الجاحضة لعادل والذي يحسبه المتأمل بالانفراج السريع لهذا الوضع والخروج للمدينة .

اراد عادل ان يخفف من ردود الافعال هذه قائلا :

- ياجماعة الخير مهلا وصبرا،اننا لسنا بوفد حكومي او حزبي ولا بدعوة لحضور فعالية اممية،بل نحن جئنا وقطعنا حدودهم بهذه الساعة المتأخرة من الليل وسلبنا الجنود راحتهم في هذه النقطة الحدودية،وساعدونا بفتح البوابة لسياجهم الشائك، وهي مسؤولية كبيرة لعدم معرفتهم المسبقة بوصولنا أو بهوياتنا التى لا نملكها ، ومع ذلك اكرمونا من مؤنهم من الخبز والزبدة، فلا عتاب ولا زعل ، ننتظر لحد ما ينفرج الصباح ويفرج به.

ما ان اشرقت شمس الصباح حتى تم الايعاز للمجموعة الغافية بالكراج بالصعود في الناقلة من قبل الضابط النقيب الذي تحدث مع عادل باللغة الروسية وابلغه :

- نعتذر لاستقبالكم في الكراج وفي تهيئة المكان لعدم علمهم مسبقا بقدوم هذا العدد وفي هذه الساعة من الليل وانتظرنا التوجيهات الصادرة من موسكو، وها نحن نتوجه الى مكان افضل من الكراج ،

وارجو الاستعداد لتنفيذ المهمة مع الالتزام بالتوجيهات وقبل الصعود الى الناقلة يجب تعصيب العيون للجميع .

بعد اكتمال صعود المجموعة ، انطلقت الناقلة ونثارُ الغبار ورائحته تتصاعد وتخترق الخياشيم، اشتدت الاسئلة والشكوك تغلي بين الرفاق بعد تعصيب عيونهم متسائلين :

- ايرمى بنا الان خارج سياج الحدود !؟.

اردف عادل موضحا حسب معرفته وباصرار:

- لايحق لهم ذلك طالما اجتزنا مسافة المحرم الدولي بين البلدين ودخلنا حدودهم ونحن الان نسير في العمق .

وما هي الا بحدود نصف ساعة مضت واذا بناقلة الجنود قد توقفت امام مبنى واطئ بسور قديم كانه ترك منذ الحرب العالمية الثانية ، يالهول الصدمة التى حلت على الجميع وانقطاع الانفس عند النزول في ساحة المبنى .

لقد كانت مفاجئة كبرى غير متوقعة عند اتضاح الامر بنزولهم من الناقلة الى ساحة المبنى بانهم قادمون الى السجن اتضحت معالمه من نوافذه الصغيرة المتجاورة وقد مرعليها دهر من الزمن . وهنا جاء دور عبد الله بالكلام والتعليق متوجها لعادل يناكده :

- ها مولانا ، خوش مرقة وخوش ديج لو هاذي مثل ذيج ! . شكرا للرفاق السوفيات على حسن الاستقبال !.

اجابه عادل ببشاشة :

- صحيح واتفق معك بان السجن ليس لنا نحن الاباة، السجن للمجرمين الطغاة ، سنصمد ونرى مستقبلا يخلد لنا الغد،والسجن السوفياتي هذا اشوى وارحم من سجن أيفين المخيف الرهيب .

ويقول عادل حسب اعتقاده :

- والحقيقة تقال بان هذه النقطة الحدودية لا توجد فيها غير هذه البناية والتى تعتبر سجنا لقطاع الحدود والمهربين،وفي حالتنا هذه مكان للتجمع فيه يتحققون من صحة هوياتنا من مصادرهم الخاصة وحين استكمالها يتم الافراج .

دخلوا الزنزانات الانفرادية كل شخصين في زنزانة يقدم لهم الطعام من خلال الفتحة في الباب كما في بقية السجون لايسمح لهم بالخروج الا عند طلب استعمال دورات المياة ، ضجر وملل وحيرة وضياع امل حتى وصل الامر البعض في اتخاذ مواقف اخرى ، وبعد ذلك سمح للجميع للتمشي بعضا من الوقت في الساحة .

وبعد شهر ابلغوهم بانه سوف ينقلون الى موسكو عبر مدينة اخرى تنظم عملية السفر منها . حيث نقلوا بالقطار اليها تعتبرالمدينة الثانية في جمهورية تركمانيا،ومنها الى مبنى في اطرافها تسمى "بيوت الراحة" وتحت الحراسة بلباس مدني ،يحضر لهم الطعام يتناوب عادل مع الطباخين بشرائه من المدينة . طال الانتظار في " بيوت الراحة" هذه بعد ان تجمعت فيها الحشود من العراقيين من كردستان وافغانستان وايران وحتى من الهند ولكل شخص له حادثة وقصة عذاب يهتز لها الضمير الانساني .

اخيرا جاء باب الفرج بتبليغ الجميع والاستعداد بالسفر الى موسكو، وبعدها ذهب كل في وجهته والاغلبية من هذه المجاميع اختارت العيش في دول اللجوء الاسكندنافية ما عدا القلة القليلة التى رضيت بالبقاء في الاتحاد السوفياتي ومنهم عادل .

وجه عادل سؤاله الى عبد الله :
- ما قرارك يا عبد الله في البقاء في موسكو ؟. حيث الماء والخضراء والوجه الحسن ! .

اجابه بعد ان ازاغ بعيونه يمينا ويسارا وبحسرته المعهودة :

- ابعد كل ذلك الاستقبال من البداية وانتهاءا في بيوت الراحة اتريد مني البقاء ، التوبة التوبة ودعها لك وامثالك .

سافر الكثير من المجاميع الاخرى المتجمعة في موسكو الى دول اللجوء الا مجموعته،فابلغوهم بالسفرالى سوريا ومن هناك يتم توزيعهم الى وجهاتهم من قبل منظمتهم في دمشق .

ما ان حطت الطائرة المطار واذا بحافلة عسكرية خضراء داكنة اللون وقفت بمسافة عن الطائرة تنتظرهم يحرسها افراد من الامن بلباسهم الخاكي مدججين بالسلاح وزجوا افراد المجموعة في داخلها بدون توضيحات !.

خاطب عادل عبد الله والذي بجانبه اثناء صعودهم الحافلة :

- خوش مركة وخوش ديك لو هذه مثل ذيج ، ياعبد الله ! .

اسرعت بهم الحافلة من المطاركانها الصاروخ وشقت طريقها الى خارج دمشق ، وكانهم دخلوا حالة الحرب . فتحت العارضة مباشرة

وتوقفت الحافلة عند مبنى واطئ ومن جنباته تعالت اصوات سياط وصراخ وصيحات وجع وانين،اتضح عند دخولهم المبنى بانهم في سجن المزة .

توالت عليهم التحقيقات من قبل ضباط امن سوريين (بهيئتهم كضباط الامن العراقي) وعلى التوالي كل ساعة حتى الصباح ، ومع تصاعد عملية الجلد بالسياط والصياح المتأتي من البنايات المجاورة،وعند الصباح نقلوهم الى قسم (مقر) امني اخر في مركز المدينة خاص بالفلسطينيين والعراقيين .

امضى عادل العيش في دمشق بكفاف وعمل خلال فترة تواجده ، واستطاع وبمساعدة بعض الاصدقاء المتمكنين ماديا في شراء جوازعراقي مزور وتذكرة سفر، وبعد اسبوع لا يصدق نفسه وقد حطت الطائرة في موسكو، تم ذلك بسرعة وبمساعدة المنظمة في دمشق، والتحق بدراسته مباشرة بعد تقديم الوثائق اللازمة .

سافرت المجاميع ومجموعته التى كانت معه الى دول اللجوء وامسى عادل يجمع اوراقه وكتبه ومراجعة المكتبات لانهاء دراسته العليا المؤجلة وظل أمينا يتابع ويتقصى اخبارهم ...اخبار الرفاق والاصدقاء في دول اللجوء من هنا وهناك وبالمراسلات في المناسبات ، فمنهم من تزوج وكون عائلة ومنهم من انخرط في العمل واشتغل ومنهم من عاد بدون زواج الى العراق بعد ان غطت عقود السنين راسه بالشيب ومنهم من رحل بعيدا عن الاهل والوطن .

بهذا الصدد يقول عادل :

- هنالك اناس قدمتُ لهم المساعدة ولا اعرفهم سابقا ، تواصلوا معي بعد استقرارهم في دول اللجوء في حين ان المقربين من الاصدقاء لم يسعوا الى المواصلة .

اخذ عـادل يقارن بحسـرة وألم ما تم تحقيقه من الازدهار والنجاحات في بنـاء الاشـتراكية والذي اشـير اليه في المؤتمـر الخامس والعشرين (مؤتمرالنـوعيـة) للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقد عام ١٩٧٦في موسـكو،الاشتراكيةالتى كانت امل وحلم الشعوب المضطهدة ومنها حركة التحرر العربية وما يجري الان من تراجع :

- لقد تجولت في شوارع موسكو والاماكن الرئيسية ، لقد صقعت على ما شاهدته من تغيرات طرأت على الحياة في موسكو، حيث ترى العجائز مجتمعات عند ابواب الفنادق وفي زوايا الشوارع حاملات البضائع البسيطة والحاجيات وقناني الفودكـا من بيوتهن للعرض بشكل مؤلم تحت سياسة اعـادة البناء والعلنية واقتصاد السوق والسوق الحر والتعاونيات التي جاء بها غورباتشوف ، وبحجة الاصلاحات السياسية على حساب الاصلاحات الاقتصادية فتحت الابواب على مصارعها لاحزاب قومية وتجمعات معادية للنظام الاشتراكي وكأن هذه المناظر والمشاهد من زمن روسيا القيصرية قبل ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧ وليس كما كانت في السبعينات والثمانينات ما عدا المناطق القديمة او في الاسواق الكبيرة في جمهوريات اسيا الوسطى .

- وفي جانب اخر شيدت مخازن كبيرة وفق تصاميم واضاءة حديثة اغرقـت بشتـى انواع البضائع الاستهلاكية المستوردة تسيطرعليها المافيات بمختلف مواطنها من جمهوريات الاتحاد السوفياتي سكنت مناطــق موسكو المهمة بشقق وفلل فارهــة،اما المخازن العمومية

فأمست خالية من البضـائع والمـواد الغـذائية الضرورية تمت بشكل متعمد ومنسـق مع المافيات،بعد ان كانت المخازن متوفـرة فيها كل انواع البضائع الضرورية باسعار ثابته تحت اشراف الدولة .

- اما المصانع الحكومية والتعاونيات والمزارع وبعض البنايات فقد انتقلت ملكيتها الى مـدراء واشخاص يمتلكون شـبكة واسعة من العلاقات الاخطبوطية واخرها عملية الخصخصة . كانت المصانع والمعامل والتعاونيات والمزارع تابعة للدولة،اي القطاع العام الحكومي.

- وفي عهد بوريس يلتسن تم بيع نصف الصناعات الثقيلة الروسية للغـرب بمبلـغ ستين مليار دولار وحصلـت امـور متشابهة فـي جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة.

- وفي الشارع يلاحظ بعض التمايز بين شرائح المجتمع اغنياء يمتلكون السـكن الـراقي ، فللا وشـققاً وسيارت ذات الماركات الاجنبية كالتي ترافق الوفـــود الحكومية بمصابيحها والمصارف الاهليـــة و(كيوسكات) الصرافة وتبديل العملة ، وانتشار السوق السوداء، لم يكن هذا التمايز ظاهرا للعيان سابقا الا في بعض الحالات النادرة والجميع متساون في المجتمع .

- من جهة اخرى تنتشر ظاهرة التسول وتعاطي المخدرات بشكل واضح بين اوساط الشبيبة في الممرات ومحطات المترو،وانتشار البطالة والسرقة والجريمة.سابقا وقبل اعادة البناء كان الجميع منشغلين بالعمل في المصانع والمزارع وورشات العمل والدراسة،وفي اخر الاسبوع يقضون اوقاتهم في بيوتهم الخشبية الصيفية خارج المدن وحضور المسارح والمعارض لذلك كانت الحياة الثقافية منتعشة.

- وعلى صعيد الجامعات والمعاهد ؛ برزت ظاهرة عدم الاهتمام في الرعاية والمتابعة والبحث والاعداد الذي كان سائدا في العهد السوفياتي سابقا ، حيث يقضي الاساتذة ومن الاختصاصات المتنوعة وقتا لابأس به لمساعدة الطلبة في حل واعداد دروسهم في الاقسام الداخلية.وحصل تردي في اقامة العلاقات بين الطلبة والاتحادات والمنظمات الطلابية والاستعدادات في تهيئة القاعات واقامة الحفلات والندوات بالمناسبات الوطنية لبلدانهم ، حيث كانت تتجسد اجمل صور التضامن الاممي سابقا.

ويستمرعادل بمقارنته بألم وحسرة حول كيف كانت المعيشة في الاتحاد السوفياتي وما حل بها بعد صعود غورباتشوف واعادة البناء التي جابها وتصرف بوريس يلتسن بالمضي على تفكيك الاتحاد والانفتاح نحو الغرب ويقول :

- بشكل مختصر ؛ كانت حياة بسيطة جميلة ، بدون تعقيدات،ايجابية تسودها المودة والالفة والاحترام والامان ومساعدة الاخرين .

ان مجمل هذه التغيرات والتحولات وتسارعها اثرت وبشكل مباشر على عمل ونشاط المنظمة الحزبية وعلاقاتها مع المنظمات والجهات الحكومية في موسكو، وعلى معيشة الرفاق في المنظمة وتحركاتهم وعدم تمكنهم من اسداء المساعدة للاخرين وشملت ايضا حتى المقيمين العراقيين في الاتحاد السوفياتي وارتباطهم بالعمل مع بعض المؤسسات ودور النشر والصحافة ، وانعكس هذا الوضع بشكل جلي على الطلبة العراقيين من ناحية الاقامة والمعيشة خصوصا الذين لا يملكون مصدر مادي للعيش،مما اضطر البعض توقف بحوثهم العلمية وحتى ترك الدراسة والعيـش مع ازواجهم في الارياف،واصبحت العلاقة او الاتصال بهم صعبة للغاية .

رغم صعوبة هذا الوضع وعدم تقبله ورغم ألمه وصدمته،جمع عادل كل قواه فيما بعد واستطاع التحرك في اطار الدراسة وانكب في البحث لجمع المواد في كتابة اطروحته رغم الاعاقات بسبب تقصيرالعاملين في المختبر وعدم تقديم المساعدة الا بما يرضيهم وحسب المزاج ،الا انه رغم كل هذه الظروف استطاع ان يقطع شوطا متقدما في الكتابة بمساعدة البروفيسور المشرف على الاطروحة ، وهو من المشاركين الانصار في الحرب العالمية الثانية .

واستمر بالعمل في مجال اختصاصه مقابل اجر بسيط لسداد متطلبات المعيشة وتوفير اللوازم والمواد لاطروحته. وانهى دفاعه بامتياز ونالت اعجاب الاساتذة النقاد والمشرفين ، حيث كتبت الاطروحة وما حوته من جديد يضاف للدراسة لعمارة العراق والوطن العربي وما يخص السكن العمودي لحل ازمة السكن لذوي الدخل المحدود بأسلوب جميل وعلى اثـــر ذلك الدفاع الرائع لاطروحته امام اللجنة المختصة والمكونة من رؤساء الاقسام الهندسية في الجامعة ومن خارجها والتى اشادت بالاطروحة وباسلوبها المبدع ، وعلى اثرها رشح مرة اخرى بالاستمرار في البحث والدراسات في (الدكتورانتورة - ما فوق بي اج. دي) بهذا التخصص في مجال البناء والعمارة .

استمر في العمل توازيا لدراسته واستطاع ان يوفق بينهما ، ومن خلال عمله في شركة خاصة للبناء الذي يتلخص باعادة تصاميم الشقق السكنية الغالية والقديمة وفق مواصفات اوربية ومواد للبناء باسعار خيالية تدفع للشركة ، لا يعرف من اين تأتي الاموال الطائلة لهؤلاء المشترين الجدد لهذه العقارات من الشقق والفلل،والقادمين من اوديسا وجورجيا وباكو والشيشان .

يذكر عادل موقفا حرجا بعد ان حقق نجاحات في عمله واثبات جدارته واحترامه على المدراء والموظفين :

- بان احد الشركاء في الشركة وهو ابن احد الوزراء في فترة غورباتشوف طلب مني ان اوسع بيته الصيفي الذي يقع خارج موسكو ويشبه القلعة ومن طابقين يتوسط مساحة كبيرة كغابة من الاشجار المتنوعة والفواكه .

وكان امام مدخل الفيلّا نصب تذكاري للينين يتوسط الدوار، لا تستطيع الشاحنة الكبيرة ان تنقل مواد البناء الى داخل الفيلّا ، ففاجئني بمقترحه المشين وصرح :

- بان يجب عليك ازالة النصب من المكان لتتمكن الشاحنة من الدخول.

ماطلت بعض الوقت لحين ايجاد حل لهذه الصعوبة ولحين تبيان الوضع من الجهات الرسمية . وقلت له :

- ايها السيد ارجو اعفائي عن هذا العمل ، لا استطيع ان اقوم به .

فبعد ذلك كلف مجموعة اخرى من العمال لازالة التمثال ، بعد ان بعثني للشيطان بمسبتهم المشهورة . وولد في القلب حسرة .

وقلت في نفسي :

- بالامس كنتم تؤمنون وتحبون هذا القائد الذي قلب موازين القوى في العالم ولبناء عالم الاشتراكية ، والان تناسيتم .

انتهى عادل من هذه الاضافات وبعد الاتفاق دعاه هذا الشريك الى شقته لاخذ اجوره واجور العمال ، يقول عادل :

- ضغطت على زر الجرس ففتح الباب تلقائيا وناداني بالدخول ، حيث اتضح ان الدرج ومدخل الشقة كلها تحت كاميرات المراقبة من خلال تفحصي للشاشة المثبتة على يمين مدخل الشقة ، والتي لم أشاهدها من قبل . فما هي الا ثواني وقد جاء حاملا بيده مبلغاً من المال وانحنى على الصندوق المركون تحت الشاشة لاتمام الحساب،فما ان فتحه واذا برائحة الطباعة القوية للدولارات المصفوفة داخله تفوح في المدخل بشكل سريع وتدخل الخياشيم ، مما يدلل بانها للتو قد جُلبت من الطباعة .

اخذت المبلغ ووليت وجهي باتجاه المترو، ولاخذ الحيطة والحذر من اي اعتداء ممكن .

الا ان اشتداد الوضع تعقيدا وغلاء المعيشة وعدم تقبله واستيعابه للتغير الذي طرأ وما آلت اليه المخططات والاوضاع في تسريع تفكيك الاتحاد السوفياتي،والصراع في النفس،كل ذلك اصابه بالاحباط وخصوصا بعد مشاهدته انزال علمه ورفع علم روسيا الاتحادية ، حيث كان الاتحاد السوفياتي المناصر لقضايا الشعوب المظلومة والمضطهدة ودعم نضالها في التحررالوطني كحركة التحرر الوطني العربية ومنها فلسطين واليمن وباقي الدول العربية، ومساعدته لشعوب شرق اسيا من فيتنام ولاوس وكمبوديا وكوريا الى كوبا غربا وافريقيا جنوبا ، ومواقفه في المحافل الدولية .

٢

اتخذ عادل القرار في ايجاد فرصة للعمل في دول الخليج وذلك لاشتداد صعوبات المعيشة، وما حصل من تغيرات لم يستطع تحملها وتقبلها ويرفضها في دواخله فهي خارج وبالضد مما آمن به وتأمل ، يندب حظه ويلعن الساعة التى خرج بها من كردستان ورأى ما رأى من المصائب التى حلت بالنظام الاشتراكي وتكالب كل قوى الشر والعداء من كل الجهات على تفكيك الاتحاد السوفياتي وباقي الجمهوريات السابقة .

لقد عانى عأدل اشد المعاناة في البقاء في موسكو وما آلت اليه الظروف الجديدة ، فجمع ما توفرمن مبلغ للسفر وشراء بطاقة السفر الى اي مكان يجد فيها امكانية العمل والعيش لحين ما تتضح الامور في العراق ، وجاء لقاءه وتعارفه صدفة مع ابي محمد سالم اليمني الزنجباري القادم الى موسكو بغرض السياحة بداية لعمل فيزة تمدد لغرض الحصول على عمل .

يرجع عادل بذاكرته الى مرحلة الدراسة في المتوسطة ويقول :

- بعد ان تجاوزت المرحلة المتوسطة رسخت في ذهني وعقلي وشغلت التفكير واستقرت في داخل عقلي وقلبي مفاهيم المدينة الفاضلة والنظام الاشتراكي وعلى ما قرأته وشاهدته واستوعبته عن معاناة الفلاحين الفقراء في الريف من جراء ظلم واستبداد الاقطاع .

وامست هذه المفاهيم تدور في مخيلتي واسأل عنها الاصدقاء الذين هم اكبر مني عمرا في المراحل الدراسية حتى تجمعت لدي من المعلومات

الجيدة والمغرية حولها واصبحت اسيرها واناقشها بين الاصدقاء في المحلة .

ومن هذه النقاشات مع زميلي في الدراسة ومع اخيه الاكبرأمين والذي يسبقنا بمرحلتين دراسيتين واصبح طبيبا وافتتح عيادة له في بغداد ، بعد ان اصبح عضوا في حزب البعث يقول :

- نعلم بانه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كيف لك ان تساويني مع الذي لا يعمل ويتعب ولا يجهد نفسه .

- كيف تريد ان اتقاسم واشارك السكن والعمل والمال مع انسان عادي، وانا الذي تعبت وسهرت الليالي في دراستي ،والارزاق توزع (رزقكم في السماء وما توعدون) .

- وكيف تريد ان تأخذ الاشتراكية الارض من العشائرالتى امتلكتها منذ مئات السنين والكل يزرع ويعمل وينال استحقاقه من سيده ويعيش تحت حمايته ، و (هذا من فضل ربي).

- وكيف مساواة المرأة مع الرجل،وكيف اسمح لزوجتي ان تسير بالمدينة بدون عباءة (مفرعة) والدين والعادات والتقاليد لا تسمح بذلك، و(الرجال قوامون على النساء) و(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى). ويرد عادل على استفساراته وتوضيحاته هذه حسب معلوماته التى قرأها وفهمها ويختتم أمين رأيه في اخرالنقاش ان هذه المفاهيم جيدة ولكنها لا تطبق حسب نزعة الانسان منذ الخليقة في الاستحواذ على الاشياء والتملك،والان وقد حان موعد صلاة العصر فاستميحكم عذرا.

يقول عادل :

- بهذا المستوى كانت تدار النقاشات انذاك بمنتصف الستينيات حسب الادارك والوعي السائد ، واصبحت هذه المفاهيم تحتل مكانة في ذهنه وعقليته واسماها حقا بالامل للشعوب المظلومة والمستغلة.

منذ وصوله لهذا البلد الخليجي عانى اشد المعاناة في ايجاد فرصة للعمل رغم الوعود والمجاملات الكاذبة ، حيث كان الحصول على ايجاد العمل المناسب صعبا ويتم التعيين عبر وساطات وعلاقات المعارف ،والتنافس على اوجه ، حيث اغلب مدراء شركات المقاولات والشركات الهندسية ممن خرجوا من الكويت بعد احتلالها وهم من يتحكم بالتعينات والتي اصبحت مقتصرة على معارفهم على الاغلب ، وبين موظفين متزمتين ذوي ميول اصولية متشددة ، ومع هذا استطاع ان يحصل على فرصة عمل براتب متدني جدا مقارنة بالمهندسين باختصاصه رغم المسؤولية والمخاطرة والاستغلال ، وما كان عليه الا ان يعمل ويقاوم بدون تعب او كلل،فلا حيلة له وهذا وضع بلده العراق.

استمربعمله في الشركة الصغيرة من ١٩٩٧ الى ٢٠٢٤ ، وحين اصدر مجلس الوزراء في العراق قرارا رقم ٤٤١ لسنة ٢٠٠٨ لتسهيل عودة الكفاءات العلمية العائدة للوطن من حملة الشهادات، وجد عادل متنفسا له عسى ان يعود معززا مكرما لبلده بين اهله واقربائه ووسطه ورفاقه واصدقائه وليشم هواء الفرات الذي غاب عنه كل هذه السنين وقد غزى الشيب مفرقه إذ يقول :

- انها ساعة فرج اخرى وان بعد الالم املٌ .

ناقش الامر مع نفسه :

- كيف لي في حالة عدم حصولي على عمل هناك ؟ .

واردف :

- لقد خضت يا عـادل كل هذه الصعاب ! ، فلا تخف وليكن ما يكن .

اراد عادل بسفره هذا ان يطفئ نار وحرقة وآلام السنين والحرمان والعوز منذ هروبه من الوطن فترة منتصف السبعينيات ،بعد ان شجعه بعض الاصدقاء ليذهب ويجرب ويلتقي بالاهل بعد كل هذه السنين . وتلبية للقرارالمذكـور قررالسفر في ٢٠١٢ الى الوطن وقطع التذكرة عن طريق مطار النجف الذي هو اقرب لمدينته. اراد بزيارته للمدن التـي تـردد عليها وفــق زمنها واحداثها،وله فيها ذكريات جميلة واحساس وشـعـور صادق وموقف،من لحظة دخوله الوطن ولحين مغـادرته .

من النجف الاشرف الى كـربلاء

لم يحـس بنفسـه وبكيفية الوصـول الى المطار، الى الوطـن الا حـين لحظـــة انتـابتـه رغبـة جامحـة لتقبيل ارضه التي ودعهـا منذ عقـود مـذرفـا الدمـوع ، والتي بنى لها حلما وخيالا منذ ان غادرها مضطرا ، وقطع عهدا مع نفسـه بأن يقبلهـا ذات يـوم عنـد الدخـول وسـاعـة الرجوع ، امـلا بانه سـوف يأتي ذلك اليـوم وتأتي لحظـة اللقـــاء، لقـاء الاهل والرفاق والاصدقاء،والبحث عـن ذكـريات جميلة نقيـة طيبة انقطع عنها الوصل والتواصل .

حـبه لوطنه هو دافعه الاساسي الذي اسـرى به للرجـوع،الحب الذي اثقلـه والذي لا زال يحمـلـه في طيات قلـبه وروحه ووجدانه طيلـة هـذه السـنين مـــن الغـربة والوحـدة والحرمان والتهجـــول والترحـال والضياع والجوع وقطع الحـدود .

حطت الطائرة في مطار النجف، ودع المضيفات بابتسامة حلوة على ما لمسه من حسن الخدمة ، توقف لحظات عند السلم ، اجال بنظره المنطقة المحيطة بالمطار،تذكر ايامه عند القمم في جبال حصاروست وقت الحراسات التي تتطلب الانتباه الشديد وعدم اصدار اية حركة ، وادرك بان رجال الحماية الفتية المدججين باسلحتهم قد لا يفهمون قصده وهو يروم لتقبيل الارض فتحدث كارثة ما عند سلم الطائرة لا تحمد عقباها ،وهو النشاز من كل الزائرين ومعظمهم من الهنود البهرة القادمين من الهند لزيارة العتبات المقدسة وان لا يفسد لهم تلك الاجواء وهم محملون بالهدايا والالواح الثمينة المزخرفة بالذهب والفضة والبسة من الحرير، واناس مستقبلون لهم ينتظرون ! .

تذكرهم ايام الطفولة حينما كانوا يبيعون السمبوسة الهندية المطعمة بالبهارات والفلفل الحار في الاسواق والحارات ، تذكرحينما دخل مع ابيه ذات يوم الى بيوت احدهم من الاغنياء في كربلاء وابهره نبات الشاي السيلاني واعجب لممازحته الببغاء .

اكتفى باستنشاق هواء ونسيم وتربة النجف ،امتلأت رئتاه منها ، صار يكفي هذا هو الوطن المنتظر. ادار بنظره يميننا ويسارا ونحو الافق.واكتفى بقراءة سورة الفاتحة ظنا منه بقرب المقبرة المترامية الاطراف،ولا سيما وعده قد تحقق حينما وطأت قدماه اول مرة ارض كردستان قبل عقدين ونيف من الزمن في مفرزة للانصار البيشمركة عند دخولها الحدود الغربية بعد انتهاء ذوبان الثلوج، إذ سجد بقيافته العسكرية مع رفاق دربه قبلوا معاً تراب الوطن الحبيب.

على عجل تمت اجراءات الدخول والتفتيش داخل المطار وخارجه من قبل القوات الامريكية،توقف عند الحاجز الاخير يتطلع بالوجوه يتسائل :

- اين اهله وامه واخوانه واخواته !؟ .

- ومن هذا الحشد الكبير ومن هؤلاء الشباب والنسوة ؟ .

- ومن هؤلاء الصغار الورود ! ؟ هل هم هؤلاء؟ ، ام اولئك ؟ . لحظات لا يعرف كيف يتصرف ؟ ماذا يقول ؟ من يصافح ؟ تقدمت العجوزالمسنة نحوه ، تفحصها جيدا ومن نبرة صوتها .

- نعم هذه امي ، لقد احدودب ظهرها من ثقل وحمل وأنين السنين ! .

- لقد دق بالعراق اسفين بعد اسفين .

ضمها لصدره واحاطها بذراعيه قبلها بكل القبل ودموع الفرح والاشتياق تنهمر من العيون ، خجلان ام فرحان ؟ ، قطع كلام امه ذلك الصمت :

- كم يوم ويوم انتظرت هذا اليوم ؟، يابني لقد شربتم حليبا طاهرا ! . واجابها :

- اماه أنا لم اتغير لازلت على العهد باقي،حملت ألمي وأملي ! .

قالت :

- يا بني هذا هو انتم كل فخري وثروتي في دنياي !ما تقصده في نفسها ان تقول قصيدة البراءة لمظفرالنواب كانت قد حفظت بعض الابيات منها،تحب الشعر وتنظم القصائد وحافظة القرآن وقصص الانبياء من امها هي بنت السيد الهاشمي ، كانت من رابطة المرأة ولم يخفها الطغاة يوما ، ولها عمق البصيرة .

تمالك نفسه،حدق وتمعن بعمق كل وجوه اخواته اللواتي يصغرنه ببعض السنين واحدة واحدة الا واحدة فهي خارج الوطن، وقد لفهن الكبر والشيب وعذاب الايام ، متقبعات بالسواد .

توالت عليه القبل والتقبيل من الاخوة والاخوات والشباب والصبية والاحفاد ، عرف فيما بعد من هذا الذي ناداه بالخال ومن ذاك الذي ناداه بالعم والجد ايضا ؟ .

ويسأل :

- ومن اين كل هذا !؟.

تناثرت قطع الحلوى والهلاهل والزغاريد والاهازيج ، كزفة العريس كزفة المناضل الغائب القادم من الحرب والمعتقل والسجن ، اثارت هذه الضجة انتباه حراس حاجز التفتيش .

انه أطفأ نار الشوق .. للاهل وللوطن بهذا اللقاء.

لقد المه ما رأه من ضجة وازدحام وعدم انتظام حركة السير وكثرة المتسولين والمتروكين في المدينة . وبيوتها المتهدمة القديمة والازقة الاسنة المملوءة بالنفايات والاوساخ كمدن تعرضت للتو لحرب مدمرة قاسية،وتوشحت المدينة بالسواد والحزن،وتقاطر الجنائز تلو الجنائز لمرقد الامام بدون توقف وكأن شيئاً لم يكن ! .

اضافت قسوة المنظر اشمئزازا اخراً . يسأل :

- اين تلك المقاهي واللقاءات ايام زمان ؟ .

على طول الطريق حتى مدينة كـربـلاء انتشـرت امكنة لـدورات المياة بشكل بشع غير منتظم غطت مناظرالزرع والنخيل والخضرة والاشـجار. وهو ينظر من النافذة يتساءل :

- الم يكن بالامكان جمع كل هذ الكميات من الطـابوق والاسمنت والحـديـد وبناء جـوامـع او اماكـن للاسـتراحة والمبيت،كخـان النـص او خــان الــربع مثلا وحسب المسافات .

تذكر كيف التقى عند هذا المكان مع اسـتاذه واخوته بطريق الصـدفة قـاصدين زيارة الامـام عـلي بن ابي طالـب (ع) ، وبعد سـنين طـويلــة تبين له انهم من الاخوة الصـابئة المنــدائيين ! .

ويعود يتسائل مع نفسه :

- رحماك ياربي من هذا العـذاب ، ما الذي جرى للناس ما الذي جرى للعـراق ؟! .

احـس بان امعائه تتقطع اشتعلت بدواخله النيران واستسلم لما شاهدت عيناه من هول الخـراب والدمـار الذي لحـق بالـوطـن .

دخـل الباب الرئيسي لبيت اخته ، تفاجـأ عنـدما شـاهد النـذور تنحر وتذبح عند قدميه حسب العادات المتبعة وتوزيعها على الفقـراء والمساكين،احتفظت بعض العــوائل بهـذه التقـاليـد والاعـراف،لا بأس من ذلك طالما فيها اللمة والالفة والعطف والمودة والتعاون.

لقد تغيـرت معالم المدينـة تلك واحاطت الفنادق بالضريحين ، وملأت المكان نسـاء من ايـران وتبرقع المكان كله بالسـواد . وأمتلأت شبابيك المـراقـد بعملة التـومان، والزيارة امست تجارة.

يعـود ويتسائل :

- اين لياليك وامسياتك اين ؟، اين جلسات مقاهيك يا كربلاء التي تفـوح منها رائحـة الـورد والبرتقـال والريحـان على نهـــرالحسينية ، مقاهي العباسية والسعدية وباب بغـداد والعباس ومقاهي الخيمكة والعلقمي ؟ .

واين أمسيات الاستاذ المربي علي الشبيبي اين ؟ .

تذكـر مـدرسـة الخيمكـة الابتـدائية وفي متوسطة الثورة كيف انقسم صفهم الى قسمين احدهم جماعة ناصـر يشـجع فريد الاطرش والاخر جماعة هيثم محسن عبد الحليم ... .

حسب المعلومات التى تجمعت من الاصدقاء بان البعض منهم أنخـرط في صفوف وسـوح النضـال .
احـس بالكـبر حينما ناداه الحفيـد بانــه الجـد الاصــغر.

نهض مبكـراً كعـادته يتفحـص المكــان الـذي حـل فيه ، نظـرات هنا وهناك ، مكـان قـد مـر عليه الزمـن واعتلاه ولفه الصـدأ ، وزمن طوفــان بين امواجــه العاتية ضـاع العمـر وغـرق، وترك الـوانــاً نيليـة ســوداء رماديـــة .

أحس بأرتياح الضمير لتحقيق امنية بسيطة لها بالزيارة لمراقد الائمة مع ابنها الاكبر،واحس بنشوة وهو يدفع امه الجالسة في عربة المقعـدين متقدماً على مرافقيهم من الاخوات ببعض الامتار، وذلك من بداية نقاط التفتيش الرئيسية للمدينة الى مرقد الامام (ع) ، وأزداد شـعوره بالفخر لتحقيق امنية بسيطة كلما تترامى اليه نظرات الزائرين والزائرات من بلدان الجوار ذات العيون الزرقاء الخضراء، السمائية

السوداء ، والعسلية الزائغة بعض الشيئ ممتلئات والوجنات وردية، مرتديات ببساطة البرقع المزخرف الازرق ... النيلي ... الابيض . ومن المحتمل قد كن من اللاتي شـاركن في المظاهرات ضد الشاه .. ذهب الشاه .. ولحق به صدام.

السماء زرقاء صافية ، الجو معتدل بعض الشيئ ، القبة والمنائر الذهبية وقد زينتها الانوار تلوح للناظر من بعد،أخذ يتطلع الشارع العريض،البنايات ،المارة من الناس ، يسرق النظر الى يمينه ويساره ، لقد تغير الكثير والكثير،الا الذكريات الجميلة،وبعض الشرفات، غاص بالتفكير بعمق .. تتقلب فيه مسلسلات خزائنه وملفات ذكريات الطفولة والشباب .

قبل ايام ... بمحض الصدفة علم بأن النصير ابا حسن (حبيب البي) من مدينة كربلاء . لقد رحل الشباب ، أنقلب المكيال والميزان ، تلبس الرعاع الهمج والطارئون الجدد بالصدفة لباس الطائفية والدين .

توقف بعض الشيئ عن الدفع عند تقاطع الشارع الفرعي حيث تتداخل حركة تيارات الهواء، ولكي يلحق به المرافقون حل ربطة العنق الحمراء وأعطاها لاحـداهن من الاخوات المرافقات له . مسح جبينه برفق واحس ببعض الراحة.

تساءلت أمه :

- أتعبت من الدفع ؟.

اجابها :

- كيف لي ان أتعب يا امي وانا استنشق رائحة ماء الورد ... والعطور تخترق الخياشيم وتعطرها كلما مر بنا سـربٌ من الحـورالعين الارضي والجمال الايراني .

ويستمر في الايضاح :

- أهيم في سـحر العيون الذي لم اره منذ ما يقارب الثلاثة عقود ، (اللهم صل على محمد وآل محمد) ؛ يوما اختارها الشباب شفرةً لتنبيه الاخرين بحيث لا تثير حفيظة الزوجات حينما تمرق فاتنة مثيرة الجمال . اليوم سوف أجتاز برضى الامتحان ! ، رضى الله ورضى الوالدين .

حينما يلتقون ايام عشوراء للزيارة ، يستمعون الى الردات الحسينية ذات المغزى والمطالب السياسية ، خصوصا في موكب العباسية ، والتي يتناقلها الزوار الى محافظاتهم بعد انتهاء المراسيم ، لتصبح قضية تسارع الحـكومة والسعي لحلها.

ويؤكد لامه :

- والله يا أماه استطيع ان ازوّرك اليوم كل المراقد وادور بك كل هذه المسافات حتى اوصلك الى مرقد الحـرالـرياحي، كي تغفـري لي بعدي لكل هذه السنين .

راوده شعور بخفته كانه أصفى من كل اثمٍ ما قـد علق بالضمير . ويتحدث مع نفسه :

- نعم ... الكل يشهد بأن أياديكم بيضاء وضمائركم أنسانية حية حقاً، تحترمون الطقوس والشعائر الدينية ، بل انتم من صلب عوائل دينية معروفة بالكرم ، الاخلاق، الثقافة ، العلم والحكمة ، مفتوحة دواوينها ومجالسها للمحتاج والفقـير نهارا ومساءا.

أطاف بامه ضريح الامام ، وحال أنهاء الزيارة انكبت الاخوات سجداً ركعاً ، قعداً ، ركعة بعد ركعة ثم الركع والاعادة من جديد ، تطلع الى ساعته اليدوية عدة مرات واشار الى احدى الاخوات :

- عسى ان يفهموا بأنهم قد اطالوا بالصلاة بغيرالمعتاد وهي بالذات.

انهت صلاتها واوضحت لاخيها :

- هذا هو دين السنين السابقة والان اعوضها .

اجابها :

- بانك لم ترتكبي اجراما او ذنبا فالله هو ارحم الراحمين .

وواصل الشرح لهم ، فهو أبن العائلة الدينية يفهم ..الصلاة ، يعرف الشعائر والطقوس .. يحترمها، حيث الركعتين محبذتين عند الزيارة ، فِلمَ هذه المبالغة والتأليه .

مالذي جرى لهؤلاء الناس لا يعرف ، بالامس كانت أحداهن متقدة الفكـر والعلم ايام دراستـها فـي الجامعة،أهتماماتها الادبيـة،جمال أحاديثها ،حيويتها ، عمق وموضوعية طروحاتها وتحليلاتها وجرأتها، معارفها الادبيـة،حبها للشـعر كأبيها وأمها .قرأت للزهاوي، الرصافي، الجواهري، غائب طعمة فرمان ، جبران خليل جبران ، طه حسين ، وغيرهم من الادباء العرب . ويؤكـد لها :

- أتعلمين كان جدك المعمم لابيك ... عادلاً ... صادقاً ... غير مغالياً يصلي صلاة المغرب والعشاء في البيت ومن ورائه الاصحاب ، اتعلمين بانه لا مغالاة في الدين ، وبان الصلاة لله وحده ، ماالذي جرى لكم تغـيرتم بشكل غير معقـول وغير مفهوم.

عاود تفحص الساعة ليشعر اخته الاخرى بأن الوقت قد مر طويلا ، ونفذ صبره وسألها ؛ اليس من عدة ايام اخر اذا اردتي ان تعوضيها ايضا :

- أغدا هو يوم القـيامة ؟ . يا أختاه لا خوف .. ان الجنةَ ليست بقطار يفـوتك ويتعدى محطاته ، بل ان الجنـة تفتح ابوابها للمحسنين المؤمنين الصادقين يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . وبضمير حي انساني.

سألته اخته الصغرى المتعلمة :

- من اين لك كل هذا من المعارف الدينية وانت العلماني في تفكيرك ؟.
اجابها :

- هل جئتكم من جزر الهونولولو او من سـواحل فلوريـدا ، وتعلمون بانني قضيت طفولتي مع جدي الذي علمني المبادئ الاسلامية بدون مغالاة .

ويسأل نفسه :

- هل انهم بحق يرجون التقرب الى الله ورغبتهم في الجنة ؟ . هل انهم يشعرون بقرب الآخرة فيكثروا في الصلاة التي تدخلهم الجنة ؟.

لا يعـرف لِمَ روى لاخته الصغرى ؛بان احـد عمـاله الهنـدوس اثـــار انتباهه ، حيث حضوره مبكراً قبل بقية العمال ، وبانتهاء العمل عصراً يتوضأ نفس الوضوء ، يلبس ثيابه البيض النظيفة ويبدأ صلاته ، ذات يوم وجده يقرأ لشاعر الهند من البنغال طاغـور وعلم بانه انهى المدرسة الثانوية وقرر العمل لمساعدة والديه .

كان شاباً اميناً ، صادقاً طيب النفس، دقيقاً في عمله، يحسن الفهم والتفاهم ، هادئاً ، يبادر بالتحية والسلام يطبق كفيه عموديا على فمه كانه داخـل معبده ... وعلى ما يبدو اراد ان يوضح لها بان العامل الهندوسي لا يعلم بان احدا يعرف بانه مؤمن حيث يقيم صلاته

وعبادته بعيدا عن الانظـار، اي ان مسألة الدين نـدعهـا بين الانسـان وربـه.

افترش سطح البيت بعد رجوعهم ، استلقى ووجهه نحو السماء ، سرح يراقب النجوم لساعة متأخرة من الليل يتداخل لسمعه النقيق خارقا ستائر

السطح ، يناقش نفسه ما مر به الشعب بمحن .. الوضع الاقتصادي للناس..الاواصر الاجتماعية..معاملة الناس عموماً...الخشـونة والجلف.

ان الذي يجري هو نتاج الحروب وسياسة البطش والتهميش للنظام السابق والتي لم تعالج أثاره بصدق ، وتلاه الجهل المطبق بالدين والتعصب الطائفي الاعمى لدى بسطاء الناس والذي دفع به شيوخ المنابر ما بعد السقوط، وردود افعال ممن أعتمروا العمة محدودي الثقافة الفقهية الذين تصدروا ويتصدرون المشهد اليومي السياسي مستغلين الظروف المحيطة بالوطن .. فاللوم والعتاب والحساب يقع على النظام السياسي الجديد ومراجع الدين الفقهاء ، على ما آلت اليه الاوضاع التي يعاني منها الشعب.

"بـلادي وان جارت علي عزيزة .. أهلي وان شحوا علي كرام ".

هبت نسمة أخر الليل باردة ... وغط في نوم عميق.

ولا زال الاحـتفـاء به مسـتمرا وحـركـة الـوافدين والخـارجين من الاطفـال والنسـوة تـرقبا ليـوم لم يشـع عنه عـيد ، ونسـوة قـدمن من بلاد المهجـر بمحض الصدفة جذبهن اللقـاء، موشحات بالسواد والرمـاد تركت علـى وجوههن اخاديد الزمـن والغربـة والفـراق، ووجـدن صاحبهن والزمـن قـد لف رأسه بالبيـاض .

يتسأل عادل :

- اين تلك خضراء العيون ؟ ، اين دائمة البسمة كطفلة فرحة تنتظر العيد ؟ ، نفس الوداع ! .

تألم كثيرا حينما علم بان اخاها الاكبر قد استشهد في الحرب العراقية الايرانية وهو صديق المحلة والحلاق الماهرالهادئ والذي اصبح فيما بعد من الرفاق .

لا بأس بقيت نفس تلك الامنيات . احاطت المكان هدوء وسكينة كالتي في ضحى النهار في بداية الصيف ورائحة طلع النخيل.
في هذه اللحظات طرح على اخته الكبيرة :

- هل هنالك امكانية زيارة المقابر، مقابر الاهل والاقرباء ؟.

اجابته :

- نعم سوف نزورها قبل الظهر .

وعند وصلوهم المقبرة اجهش عادل بالبكاء عند قراءة الاسماء ، يخاطبهم :

- رحلتم مبكرين ودفنت آمال وامنيات مؤجلة ! .

- لما العجلة ؟، لما الرحيل ؟ ، كان يتوجب عليكم الصبر والانتظار لننعم باللقاء والعودة والفرحة كما الناس الاخرين .

توالت الوفود والزيارات من النسوة والاطفال من كل اهله واخواته من امه واخوانه واخواته من ابيه ومع احفادهن ، وعاودت الاخوات المضيفات لهذا البيت وذاك الطبخ والنفخ وتعارفوا وتعاتبوا ، فرحة

ودمعة، واخرى بانتظار هدية الخال ، هدية من ما وراء البحار، ومنهم من انسرَّ بهـذا اللقـاء فكان لهم الفخـر والافتخار بالخال وهـو من أجمل الهـدايا .

لحين وقـت العصـر بعـد من شـبع من رؤيته ومن رؤيتهم ، ومنهم من تعب في المواصلة ومنهم من اصر في استمرارية الجـدل والنقاش ومنهن من فضلن النوم لاجل مولـودها المنتظر،قطع رأي اخيه بالتوجه لبيتهم العتيق في مدينة المسيب .

غادرهم لاستغلال الـوقت لاستحصال بعض المستمسكات الضرورية منها دفتر النفوس الذي لازال مدون فيه بانه اعـزب وشهادات الجنسية والجـواز والتي فقـدها اثناء عمليات الانفـال السيئة الصيت في قطعـه الحدود المجاورة .

الى المسيب

اقنعه رأي اخيه بالسـفـر ويوم الجمعة يوشك على الانتهاء، ولا سيما يريد ان يرى بلهفة بيتهم العـتيق الذي عافه اكثر من ثلاثة عقود ، اخـذ ينظر ذات اليسـار وذات اليمين متابعا حـركة السير والازدحـام وتراكم الاوساخ،وكثرة الاسلاك الشائكة المتناثرة تلف الاعمدة والبيوت ، داخلة خارجة ، بشكل بشـع يقـودك الى عالم معزول كانه بيوت العنكبوتيات ودولة الـزواحـف والخنافـس والكهـوف،وهذا الاهـدار بعينه تستطيع ان تعمل منها عشـرات التوربينات الكهربائية .

دمدم مع نفسه وادار بوجهه الى اليمين، لفت انتباهه رجل معمم يسـوق سيارته بدون تروي ، وفي يسار المكان منظر اخر لمعمم وقف

امام بناية عالية ينظر الى الاعلى وتكاد ان تقع عمامته من رأسه بعد ان سندها بكفه ، مما جعله يتكلم مع نفسه مرة اخرى :

- انها ظاهرة فريدة لم يشهدها من قبل خلال السنين التى مضت .

تألم لهذه المناظر والمواقف ، وقارن حالة هذا المعمم وذاك مع جده المعمم الذي ذرع المدن برجليه متفقدا المحتاجين من الاصدقاء لابداء المعونة ومساعدة الفقراء ، ويتذكر مواقفه في الدفاع عن الحق ذات يوم قضى مع جده ساعات التوقيف بالمخفر وبعمامته السوداء لهجائه احد الاعيان انذاك بقصيدة لاذعة جرته للاعتقال،اتهموه حينها بالبلشفية لمساعدته الفقراء،ابعدوه عن الجامع او ابتعد طواعية ، مات قهرا أزاء احداث عام الشؤم ١٩٦٣ .

تفحص البساتين المحيطة بمدينة كربلاء الى مدينة المسيب بالجهتين وعند مشارفها ينحرف الطريق الى اليمين هذا الذي لم ينسه ، عند الامام عون بن نجم (ع) تذكر النذور والنوم عند المرقد وفك عقدة المريض ورائحة البخور الطيبة ، التفت الى المرقد وخاطب الامام :

- بحقك يا امام عون ان تفك عقدة العراق ! ، وهناك نذر اوفيه .

كانت الدنيا تتحول الى كرنفال وتنقلب ليالي العيد ومواعيد ، الافراح ودبكة (الجوبية) والمزمار والمطبك وعند الاعياد والمناسبات ولمة الرجال والفتيات الريفيات وتغنجهن ولمعان العباءة وهدة (الجرغد والجنكال) ولمعان الاحذية وحمرة الحناء وحجل الذهب عند الليالي المقمرة والهيل والريحان واستكان الشاي، ولذعة البرودة عند منتصف الليل ونسيم البساتين المحيطة بالمنطقة، هذه المناسبات قد تكحلت منها العيون .

يتساءل عادل :

- ولكن اين محطـة القطار وسـكته القادم من السـدة !

ويستفسر :

- ايعلم هذا الجيل بان الدنيا تنقلب عند ليالي العـيد، ومواعيـد.

باجـر عيد باجـر جم الف حبه
باجـر كصيبه التكرص الركبه
الف بســمة طفـل يضــحـك فــرح قلبــه

ومراجيح التغني العيـد هلهوله والف لعبه
وكالولي عليك هواي...
وعـــــودان العـــــمر ... كلــهن كضـن وياك
يلي شـوفتك شـباج للقاسم ودخول السـنة بملكاك
يا في النبع واطعم عطـش صـبير .

أدمعت عينا عادل:

- استطيع ان اتذكـر اشــياءً لم تخطـرعلى البال انه يعـود يوما ما ، يعـاود ذكـراها ... ايسـتطيع الانســان ويحسـن ذكـراهـا ! .

وصلـوا اطـراف المـدينة ... هنا درس خــالـه بهذه المدرسة في اي عام لا يذكـره ... هذا هو الصوب الصغير وهذا المكان ملتقاه مع صـديق العمـر والمدرسة والرفقـة وحتى الاخوة وكان له رب اخ ، ويمينا لا زال بيتهم قائماً ، سـهروا بعض الـوقت ... تجادلوا ، تبادلوا الفهم والمعرفة والثقافة والسياسة والفـن ،اختلفوا،اتفقوا،عجباً لامرهم!، تقاربــوا...تباعـدوا...التقـوا من جديد ...فهم متقاربـــون. طلب من

اخيه ان يتريث قليلا عند منتصف الجسر المشهور باغنية ناظم الغزالي على جسر المسيب،هنا كانا يناقشان الاوضاع السياسية وامور الطلبة وشهد الكثير من الاسرار، لا زال باقيا منذ عام ١٩٣٦.
وصل باب البيت ! ، وتساءل :
- اهذا هو البيت ؟ ، اين اولئك الجيران ؟ واولئك ؟
اين التنورالذي كانت جيرانه ام فاضل تطعمه خبزا حارا مع اللبن عندما يمر بجنبهم مع ابنها حين الرجوع من المدرسة ووقت الغداء او خبز(عروك) وعند وصوله عتبة البيت يكون قد شبع ! . فتثار ثائرة امه واخواته لطريقته .
لم تكن حينها كل هذه البيوت مشيدة،وبالتفاتة الى شباك جيرانه ظل يتسائل:
- اين زبيده ثروت ؟ ، كانت ثروة وثورة الاحلام ! ، لم تطل من شباكها، الم تعلم بعودته ! .
ولسان حالها ، تناشده وتحلفه وتقول :

- ابعد ثلاثة عقود من الانتظار تعود! .
افتكر بانها واقفة في شباكها يكلمها :

- لو عدت قبل هذا لكنت في المقابر الجماعية ياثروت ، لم احملك اي شيئ هي سنة الحياة وتبقى الذكرى الحلوة في القلوب .

دخل البيت تفحصه من الداخل والخارج ، لازالت غرفته مع امه لم يحدث بها اي تغيرالا ان الرطوبة قد كست كل الجدران واصبحت كالاسفنجة ! تحملت ظروف الثلاثة عقود ايضا،وشهدت مآسي وعذاب السنين ! .

لم يمكث طويلا ، خرج ليسأل من يسـكن بيت خـالتـه التي كان يحبها حبا جما والبيت مـلاصـقا لبيتهم، طـرق الباب، خـرج طفـل صـغير لا يعـــرف ماذا يسـأله، تخشب امامه،اذرف الدمـوع وافـزع الطفـل، وخرجت شابة سألته :

- ماذا تـريد يا ايها العـم ؟ .

استفسر منها :

- عـم ، عمـاء يعميك عمي !؟ اهـذا بيت خـالتي ؟ .

ان كلمة عمي لاول مرة يسمعها عند رجوعه ، وهو عرف بقى سائداً لسهولة تداوله .

اردفته بالسؤال :

- بيت خالتك ! .

استمر بذرف الدموع ، لم يستطع مسـحها ، ادار بظهـره ورجع الى البيت ، اصابه الوجع ، هي الاخرى غادرت قبل وقتها بكثير، هي الاخرى كأمه ، تحملت عبء الحياة وصعوباتها .

تذكر يوم قصت له حادثة بانها وعند رجوعهم بالقطار تعرضـوا الى حملة تفتيش وكن حاملات مناشير من الحلـة لتوزيعها ، وكانت احدى الاخوات حاملة علبة احـذية ، اخرجت الحـذاء الجديد والبسـته لها على السـريع واجلستها بعيدا عنها ، ووضعت كل المناشـير في العلبة وغلفتها من جـديد ، مـرت شـرطة التفتـيش ولم يمسـكوا بهم .

وكانت لها من الجرأة والشجاعة ما لا يوصف ! .

ذهبت الى دار حقها ولم يستطع ان يقدم لها شيئا على عنايتها وحبها له ، لانها كانت تحمله كثيرا عند سطح بيت جـده القـديم والمطـل على كـراج السـيارات انتظارا طويلا لقدوم ابيه فياخذه النعاس وينام على كتفيها ، تذكرها ذات مرة في كردسـتان، ولا يعرف لماذا يتذكرها

عندما يشاهد صورة فاتن حمامة او الملكة عالية والدة الملك فيصل الثاني.

تقاصرت المسافات وصغرت وتقاربت البيوت مغبرة وانكمشت ، العالية اصبحت ناصية واطئة ،والكبيرة اصبحت صغيرة كل الصغر، قصرت الشوارع وصغرت في عينيه .

اهو البعد الذي ابتعده كل هذه السنين وما تبقى من عمرهما الا القليل، على ما يبدو لها العمر وله مسئلة منطقية لا تحتاج لفلسفة ولا لقانون او لبرهان . الاعمار تقصر ، ولا شكوى لبعد المكان ! .

آلمه الوضع كثيرا، لم يمكث الا قليلا،اشتعلت بدواخله نار الاستياء لما رأه من خراب حل بمدينته ، ولم يستطع ان يقيم اللقاء بكل المعارف والاصدقاء ، حضر فاتحة احد المعارف ، قام له كل من في مجلس العزاء واخذوا يقبلونه وكاد ان يتحول مجلس الفاتحة الى فرحة باللقاء، قرأ صورة الفاتحة واهم بالخروج ،دعوه الكثيرون للقاء.

استجاب لرأي اخيه مرة اخرى والتوجّه الى بغداد قبل غروب الشمس لتجاوزاحتمالات خطورة الطريق والتفتيش ! . ودع والدته ، وبعد ان اصبحت المدينة من خلفهم اخذ من جديد يردد مقاطع من قصائد لمظفر النواب : عودان العمر كلهن كضن وياك ...

المحمودية

خلال عودته وطيلة الوقت شغل فكره موضوع قصرالمسافات للشوارع وصغرحجوم وتقارب البيوت من بعضها البعض وانكماشها . لقد صغرت الاماكن،رغم توسع العمران منتصف

السبعينات والانتشارالعشوائي في احياء عديدة للمدينة ما بعد السقوط ٢٠٠٣ ، بعد كل هذه السنين ، ويتساءل :

- اهي نتيجة ما بعد الحرب ؟ ، اهي ظاهرة ما ؟ ، ام ان الزمن قد تغير ! .

لقد ذرع المكان ذرعاً ، تمشاه ، فحصه ، لم يجد التفسير لذلك ولا حتى في برامج الحاسوب وخرائط المسح الجوي ، لقد كبر وكبرت المدن ، له عمرٌ ولها العمرُ.

كانت المدينة، في مخيلته ، في نظره طويلة كبيرة مترامية بهية مهيبة ، خشع قلب كل من نظر! ، بعيدة هي كل تلك المسافات ، يخاف الصبية قطعها بانفراد .

لكن مدينته وشوارعها ودوارها وازقتها واحيائها ودكاكينها وناسها الطيبين حفظها طيلة غربته في لفاليف ذاكرته ووجدانه وضميره امانةً.

لقد احسن رسم الارض والخرائط وتقديرالمسافات ، تعلمها من دراسته ولدوراستاذه في مادة الرسم الهندسي مفيد حسو أخوان في صقل المواهب وفضله الجميل،ولرسمه الوديان والجبال في فترة الانصار .

يقول عادل :

- لا اعلم ،او تكون ظاهرة ما لا محل لها في اشغال الخيال والبال ، نعم ، لا عتب علي من مدينتي اذ استطعت اقناعها باخرالمطاف بانني كحال ذلك السجين الذي قضى طيلة العمر في سجن اسمه الغربة او كذلك السجين الذي يبحث عن الحرية في فلم

الفراشة، او باضعف الايمان كعائد من جبهات الحرب والقتال وبعد ان حل في المدينة الحريق والجوع والدمار ذهب كل شيئ في مهب الريح .

- نعم ، وقد أكلت الانقلابات والمؤامرات خيرة الشباب من الابناء والبنات.. والحرب طرقت كل البيوت .. لكن لمه .. ، ومن اجل من .. ، ومسؤولية من .

أسئلة كثيرة لمن ،(يا أَيُها الَذِينَ آمَنوا لا تَسْأَلوا عَنْ أشيَاءَ إنْ تُبدَ لَكُمْ تَسُؤكُمْ).

علق بذهنه شرح وتوضيح الدكتور رحيم عجينة في ندوة للانصار من اجل ايقاف الحرب ، حيث كان موقف الحزب الرسمي منذ بدايتها التنديد بالحرب والمطالبة بايقافها ، ولا زالت ترن في رأسه الى هذه اللحظة ؛ لا نستطيع تقدير حجم الكارثة ونتائجها وتفاعلاتها حتى ما بعد توقف الحرب ! ، لقد صدقت كل تلك التوقعات ، أهذه هي النتيجة !.

طرق باب الدار، في تلك المنطقة الممتدة خلف مدرسته الابتدائية الاولى ، كانت هذه المنطقة اجمل بستان، حينها وبطلب معلم الرسم شاكرالعكيب ، رسمها اول مرة اروع منظور.
عاود الطرق،خرج الاطفال وخرجت النسوة متسائلات عن الضيف القادم ، من خلال تفرسه باحساسه المفرط في التشخيص ، عرفهم بدون مقدمات، هؤلاء هم اخواته واخوته واطفالهم من ابيه ، اجهش الجميع بالبكاء .
جلس والجميع ملتف حوله بلهفة،لم يستطع تمالك نفسه حينما وقعت عينه بعين ابيه بالصورة المعلقة ، يكلمه ، يعاتبه ، يؤنبه..

يؤذيه يؤلمه شدة التأنيب واي عتاب ، عتاب مريض ، ينتظر قدوم ابنه الغائب منذ امدٍ بعيد ، كان ابوه يقص عليه قصص الائمة والانبياء،قصة سيدنا يوسف وانتظار ابيه يعقوب وايمانه بوجود ابنه على قيد الحياة والعودة واللقاء،بعد ان حلت بهم السنوات العجاف .

ليست مصادفة حينما اسمى ابوه طفله يوسف من زوجته الاخيرة ، اغرق وجهه بالدموع ، تحسر بعمقٍ والمٍ شديد ، لم يستطع حينها حضورمراسيم جنازة ابيه بسبب المنع وقساوة وصعوبة الظروف ، تحسر لقصص أبٍ لابنه لم تكتمل ، ودفنت معه اجوبة لاسئلة الابن المؤجلة التي تأخرت وتأخر الكثير ، تمنى ان يكون وحيدا وان يبكي الكثير ليطفئ حرقة التأنيب والعتاب التي اجتاحته باعماقه .

وقف عند زقاق المسجد القديم مقابل خان السبيل، منتصف الستينات وهو طفلا ، كان قد قلل من دخوله المسجد كردة فعل بعد وفاة جده ، اخر مرة ودع دخوله المسجد هو اول ايام عيد الفطر ، ولقائه بالسيد داوود الشرع بعد صلاة العيد مع ابيه وجمع من الاصدقاء،وكان يسمع ما يدور من خلال حديث شخصيات الحضور وتوزيع الادوار .

تفحص مدخل ودكة الخان عرين السيد تركي وممتلكاته من القناني والعلب الفارغة،لم يعد سيد تركي جالساً هناك ليعطف عليه مما كان يعطيه ابيه من نقود ، نظر للزاوية في سطح الخان واللقالق لازالت في عشها والواجهة التي شهدت تعليق الصور واللافتات والتعليقات ايام الوحدة العربية والتي لم يدم شهر العسل حينها الا ايام معدودة (وحدة ما يغلبها غلاب) .

ويتذكر عادل فيقول :
- ذات يوم تفاجئنا بوجود حمار صغير وقد علقت على وجهه صورة لجمال عبد الناصر. صور تلزق تلصق واخرى ترفع تقلع (الله يذكرك بالخير يا حميد الرقاع) ، ولكن محبة الوطن تبقى تفيض بها القلوب الخيرية .

هم بالدخول لساحته ، الا ان التفاف الاصدقاء والمعارف حوله حال دون ذلك ، راه صديقه الاخرس الكبير من بيت الشاطي ، قبله فرحا كالطفل الصغيرعلى عجل وعاد مسرعا مقبلا اياه داعيا الاخرين باللقاء ، وما هي الا لحظات وقد تجمع الكثير من اصدقاء الطفولة والمحلة ، حيث اخبروه باخبارهم ، حيث ان بعضهم رغم كفاءته لم يحالفه الحظ في الانتخابات المحلية .

في الطفولة عمل سوية مع الاخرس في صيدلية احد اقاربه ، جمعوا الطوابع البريدية من الرسائل الواردة للصيدلية من الشركات الاجنبية ، بريطانية والمانية وكندية انذاك .

سوية ، وبألم شاهدوا يوم اعدام الزعيم عبد الكريم قاسم والقادة الاخرين ، بالمقهى المجاورة لصيدلية المحمودية ، تألموا سوية لانهم احبوه وهم صبية لا يعلمون الا بصدق احساسهم ، وقد صدق الاحساس .

اجال بنظره الى الدوار العظيم (الفلكة) والتي يقف شرطي المرور تحت مظلة في وسطها ، ومن ذاكرته يقول :

- وكم شهدت هذه الفلكة من الاحداث والمظاهرات الطلابية منذ انبثاق ثورة ١٤ تموز المجيدة،حيث تنطلق المظاهرات في البداية من مدرسته الابتدائية الاولى للبنين القديمة خلف خان السبيل ثم

تلاميذ المدرسة الثانية ومدرسة البنات حاملين اللافتات ، ثم التجمع عندها وتتعالى الخطابات والهتافات ، من التلاميذ والطلبة من يبقى في المظاهرة الى نهايتها والقسم الاخرمن يحاول ان يفلت ويهرب من انتظارٍلا يغنيه من جوع او يحميه من ضربة عقال من ابيه واضعف الايمان ينتهي بتوبيخ،ويتفرق الجميع الي البيوت عندما يحين وقت الغداء .

قبل زيارته لبلدته ، التقى بصديق يصغره سناً عند مجلس السلم والتضامن بمحض الصدفة ، خمن أنه من مدينته ، لم يستطع الصبر، عرَف نفسه،عرفه وعرفوه ، قبلوه ، تبادلوا اطراف الحديث عن الغيبة والغربة والمدينة،وعده بزيارتهم والمدينة العزيزة عليه،مدينته طفولته ولعبه وبيته ومدرسته واصدقائه وبداياته وامتداداته ونشأته .

سئل عادل :

- من بقى على قيد العمر من المعلمين والمدرسين والمعارف ومن الاصدقاء ، ولم تمسهم الحرب ولا الطغاة . تألم شديد الالم حينما علم بان عددا من رفاقه واصدقائه قد اعدموا ومن استشهد منهم في الحرب العراقية الايرانية .

اجابوه :

- لقد مست الحرب كل البيوت بحريقها .لم يبق من اولئك الشباب ، الا من المسنين وشباب ضاع في وقت بدون قياس او تقدير .

يقول في نفسه :

- كمـا هـو ورفاقه ممن اضاعوا طاقـتهم وعمرهم في سـفـوح الشـمال.

كم كان يتمنى ان يكون لقـاء له باصدقاء من امتـداده ، ليقـص لهم ذكـرى ايام وايام ، ومن كان قـريبـا للقـلـب وللانســان، البطـل رزاق شـعلان وعبد الـزهرة وعامـر كاظم وعبـاس علي .. وغـيرهـم ممن كان رحيله على عجـل، لقد ضرب الارهاب والحـرب كـل بيت وسلبت الظلمـة كل شيئ جميل، الاصـدقاء لا تسـتطيع عـدهم ، ومنهم لازال خـارج الوطـن .

اسـره اللقـاء مع من بقى من اصدقاء العـمر والجـيرة ولم تغيـره قسـاوة وظلم الايام ، عند توقفه عند بـاب المـدرســة الابتدائيـة الاولـى ، تـذكـر اصـدقائه في المـدرسة ؛ صـلاح مهـدي حسـن ولعبـة " السـعلوة " في انبوب تصريف مياه الامطار والـذي يتذكـره عند كل بنايـة ينفـذها وفيها هـذه الانابيب ، مـر ببيتـهم وجدها وقـد ابتلعتها الطريـق ، والصديق في الصف الرابع رمـزي جـميـل حنا يوسـف ابن مهنـدس الـري والذي اول مرة عنده تعلم ركوب الـدراجة الهوائية والذي لا زال يبحث عـنه لاجـل رد المعـروف والجميـل ، ومـراقـب صـفـهم الطيب نعمـة خضـيـر والذي التحـق بالخـدمة العسـكـرية مبـكـرا ليعـيـل عـائلته ، وياسـين عـمـاش وعـلي (بريـر) وعـقيـل وحاج عـقيـل وقاسم الموسـوي وعبيـد واحمـد عبـد الباقي وعبد الله صـادق ، واخرين لا يعـدهم وكـم تمنى ان يلتقي وبدعـوة الجمـيع .

وتذكـرمعلـميه الاوائـل الطيبين والذيـن لا زالـوا في نفسه طيبين الذكر، والمـديـرعبيد الحمـود رحمة الله عـليه حيـن عاقـبه لاول مرة

عند تأخره عند (الردة) دوام ما بعد الظهر بعصى الخيزران ، مهدي الجميلي ، حسن الدراجي، عبد الله ومدرس العلوم ومدرس اللغة الانكليزية واخرين معلمي النشاط الفني، تذكروا جميعا ايام النشاط المدرسي ومعلمهم الانيق علي رفيق والذي بذل الجهود الجميلة في اخراج مجلة صدى المعرفة ، ومدرسي مدرستهم الثانوية سعدي الشذر وبسمارك وعباس الدباغ وحكمت الشماع ، والفنان التشكيلي الكبير نعمان هادي والذي لم يغادرقاعة المدرسة صيفا وشتاء حتى المساء، ومعاون المدرسة صفاء العاني الاخ الكبير لم يعد يلبس دشداشته بانتهاء الدوام فترة الصيف ، والاب صبري الفراش ؛ ابو حمزة لا تتعب نفسك في فتح الابواب الجانبية للدخول ، لم يعد مطرالاحزان مثل تلك الفصول ، اتعلم ، كنا صبية نعلم بانك من الرجال كنت شهما غيورا ، ونعلم بأنك تقرأ بخلوة ، بشغف صحيفة كانت اومنشور. ولم يعد هراطة يجول المدينة يضمد الجراح ، كان يزرق العافية والشفاء ويبعث الامل والخير للناس ، للفقراء .

يتسائل عادل :

- قولوا بالله عليكم كيف نعيد ارث وصرح اجمل واروع واطيب الذكريات مع اطيب وانقى الناس ؟.

دخل سوق الخضرة ، اتعبته وآلمته الفوضى وعدم الانتظام والاوساخ والفضلات،احزنه تغير المكان والبيوت العتيقة المهدمة والتي لا تتمتع بابسط الشروط الصحية الملائمة للسكن، متسائلا :

- الا يستحق الانسان العراقي ان يعيش باحسن من هذا ، مقارنا ذلك بما توصلت اليه البلدان المجاورة فيما يتعلق ببناء السكـن اللائـق .

حـن الى ايام الصبى والدكاكين والمحلات القديمة من خـان السـبيل ، الدكان الكبير دكان ملا صـالح وما يخطـر بالبـال وما تتمنـاه النـفس من بضـاعـة ومن كـل الاقطـار ومع ثبـات الاسـعار (قاتـل الله عـدم ثبـات الاسـعار) ، والدكاكين المجاورة له ، على اليمين محل الحاج مـيرزة ولم يعد ملصق مـارلـين مـونـرو بثوبها الرياضي الابيض راكـبة دراجتها الهـوائية عند واجهة المحـل، ورحل مصلّح الراديوات شـكـر ورزاق ميرزة والى اية وجهـة لا احد يعلـم ، ومحـل رشـاد وسـاعات فلكـا وجـوفيـال،اين الحـلاق جهـودي والـذي بـدون استشارة يحلـقه درجـة الصفـر، ومحلات القمـاش والـبزازين ، ودكاكين آل الشـاطي عبـد الامـير وهـادي المعلـم وابوهـم الانسـان الهـادئ المسالم، مصبغـة داوود الصباغ وجلوسه مع صديقه احسان، وعلوة الحلاوي التي تفوح بالعنبر والبهارات والخطأ المسـتمر في كتابتـه اسم احمـد المهنا الى هـذا اليـوم ، اشـتاق ان يأخـذ كأسـة المحلبي (من سعيد ابوالمحلبي) وصديقه عدنان سعيد ، اشـتاق لدكـان عـبد البعيـوي ومجـلات المـوعـد .

متأسـفاً لم يستطع هـذه المـرة استنشـاق رائحـة الشـاي السيلاني المـنبعثـة من دكـان ابـو مـولـود والتي لم تفلـت من حـاسـة شـمه طيلة تلك السـنين، اين مقهـى ديعـى بمـراوحهـا والتي كانت تغـص بابنـاء المـدينـة والقـادمين مـن خارجهـا ومن الارياف،ايـن تلك الحـركـة التي لا تنقطـع عند حـلـول ايام الصـيف عند دكـان مـرطبـات حمـزة البغـدادي،لم يـذق طعمـا لاسـتكان شـاي مثـل

شـــاي قـهـوة محمـــيد وقت العصرالمجاورة للخان، او مقهى عـبـيد ايام الجمعـة ، تمنى ان يرجعـه الزمن للوراء بكثير وان يدخل مكتبـة ابن خـلـدون للقـراءة وقت الصيف الحـار قاطعـا كل تلك المسـافات من بيتهم القديم .

لـن ينسى ذلك التجمـع من شـباب مـدرسـته ايام الاحداث السـوداء عـام ١٩٦٨ ! . حينما استفسر عن القائمين بالانقلاب :

- مـن هـؤلاء ؟ .

حيث اكـد الشباب :

- بان هـؤلاء قـد ركـبـوا قـطـارا امريكـيـا مـن اول الايام .

ويسألهم :

- اي قـطـــار ياجمـاعـــة الخـير ؟.

كـان من الشـباب ومن الطـلبة رزاق شـعلان ويحيـى وجـواد كـظـوم وطـاهـرتـركي وعبـد عـلي وياسـين زكي واخيـه دحـو ووادي وعـامـر وجبـار رزوقي والـويل الـويل اذا زعـل ، يرشـقك برشـقة مـسـددة من خـشـمه الكلاشـنكـوفي، ولمعـرفة جـواد كـظوم الجيدة بنقاط ضـعـفـه واسراره يسـتطيع ارضائه باخـرالمطاف بصورة لاحدى الفنانات في مجلة الفن .

يذكرعـادل :

-الغـريب؛كـيف ومـن ايـن لهـؤلاء هـذا التشـخيص وهـذه المعـلـومات وهـم طـلـبة المـدارس .

شباب المدينة انتم وبكم الوصف الجميل يقصر.

اراد ان يتجول بالمدينة، بكل ازقتها ودرابينها ودكاكينها ويشبع ويملح نظره وبصره بها ، وان يحدد مكان بيتهم القديم بيت جده وابيه ، بعد هجمة الطريق الجديد الموازي لسكة القطار ، وفي غرفة جدته من ابيه،تلك الحفرة التى وضعت فيها العلبة واوصته بفتحها بعد موتها خزنت له الدنانير ومحبس ذهبي به تاج الملك .

هنا قد اخفى صورة ما ، لم يعرف حينها لمن تعود ، فَهمَ فيما بعد انها صورة نوري السعيد،وخلف باب غرفة جدته الصق صورة الزعيم ، هنا اهداه احد المهندسين الروس ميدالية صغيرة اسماها (خرشوف) بعدما اسقاه بطاسة اللبن البارد .

وهنا اسقبلوا قطار ملا مصطفى البارزاني والمقاتلين البيشمركة العائدين (هربجي كرد وعرب رمزالنضال)، بعد اعوام دخل كردستان نصيرا ودخل منطقة بارزان .

من هنا بدأ يقرأ كراريس لينين والشبيبة والمدينة الفاضلة والاشتراكية والمجلات الفنية وجده رجل الدين ، وهنا امام الباب تجمع اصدقاء الطفولة والمدرسة والمحلة ، من هنا سمع الاذاعات ، صوت العرب ، نصرة شعب فلسطين وجمع لها الفلس وحفرها باعمال الطين ومساعدة ثورة جنوب اليمن والتي بعد حين اكرمت واسكنت الكثير من العراقيين الهاربين من بلدهم ، واغاني ام كلثوم عند الظهيرة وبعد صلاة الجمعة .

هنا بيت الجيرة الحلوة بيت سيد بدر، وبائع الخضرة محمد غالي واولاده اصدقاء المدرسة قاسم ومحمود،بيت كاظم ابو البستان واولاده موسى ومحمد وعيسى وخضر ويونس و...(اسماء فوق

الطائفية في ذلك الوقت) ، وزيارتهم المتواصلة للامام الكاظم ، ومريم تزوده بحليب بقرتها الطازج منذ الصباح عند صياح الديكة الكبيرة ، موسى يتفنن بعمل وبلعبة لوريات السيم ، ومحمد يصل قبل الطلاب يخوض بحذائه العسكري البرمائي المستعار من اخيه امطارالشتاء، فيغطي ارضية الصف ومدخل المدرسة بالطين ، مما يثيرغضب صبري الفراش وفي اليوم الثاني يفتح له الباب الاخر للمرور ويجبره بالتنظيف .

كانت البيوت من الطابوق واللبن والطين . اين بيت عبد السادة ؟، وبيت الخبازة ام حمزة ؟. لماذا قصت واندثرت البيوت ؟.

امسك بحصى القطار، يناشده :

- عن فتية مروا بك هم من الابرار .

لم يمهله الوقت في البحث عن الاصدقاء . فرح لمشاهدته مقراً للحزب ، تسلق عتبات الدرج بسرعة فائقة كانه احد القاطنين مطمئناً للدخول ، لم يجد نفسه الا وهو محاطاً بجمع من الرفاق الطيبين،اصدقاء الدراسة والمحلة والجيرة ، يصغروه بالعمر ويكبروه ، لم يخب احساسه بلقاء نفس تلك الوجوه الطيبة التى بنى بها املاً وهذا صار يكفيه ، استقبلوه اجمل استقبال ، (جكارة واستكان جاي)، تبادلوا اطراف الحديث والذكريات ارجعته الى بضع سنين كانه لا يزال يسير بازقة المدينة متأبطاً كتبه المدرسية ، متلهفا للقاء العصرعند سكة القطار مقابل بيتهم ، عسى ان يعطيه الصديق علوكي كراساً للينين او لماو تسي تونغ او يوسف ستالين الذي تقاسم مع عبد الكريم قاسم في حب الناس والظهور في القمر .

اراد عادل ان يقول لهم :

- ان ما تبقى لنـا من العمــر ، يجـب ان لا ننـام ، وان نمـنا ، فننـام بعـين واحـدة .

افرحـه طـيبة وخـبرالـوصـل والـوصـال وتتبـع الاخـبـار، تمنى ان يـرى الجميع وقـد حانـت العــودة من بلـدان المهجـر . لم يشـف غـليلـه مـن رؤيــة المـدينـة والاصدقاء ، توثـق من صـدق ما رسـمته احاسـيسه ومخيلتـه من تلك الـوجـوه التي فارقها وظلت في اعمـاق ذاكـرته محـفـوظة كل تلك السـنين . ودّعـوه عند مـدخـل المـقـر، غـادرهم بفـرحٍ وانشراح وافتـخـــار .

٣

الى بغداد

عـودان العمـــــر كلــهن كضــن .. ويــاك
يلي شوفتك شباك للقاسم ودخول السنة بملكاك
يافي النبع واطـعم عطش صـبير.. ولا فركاك

اخـذ يردد هذه الابيات من قصائد للشـاعرالكبير مظفـر النواب ، والتي لايزال يحفظها منذ ايام المدرســة ، جمعها من هنا ومن هناك في دفترالانشاء للغة العربية والذي لازال محتفظا به حتى الان مع مجموعة من اوراقه وصوره القديمة والبوم الطوابع جمعها منذ دراسته الابتدائية، هذا الدفتـر هو دفتـر البدايات،اخـذ يرددها بعد ان تجــاوزا اطــراف المـدينة ، بعـدها غــط في تفكــير عـميق ادخـله عالـم ذكرياته البـعيد المترامي الاطـراف ، مبتسما تارة ، ومتألما تارة اخـرى ، وكل تلك التعــابـير مـرسـومة على وجهه ، والتي بانـت على محيــاه .

احـس هـو بقــرارة نفســه انه كـبـر بعض الشــيئ من حـرقة الالم والفـراق ، وافـراح خاصـة وعامـة ، للناس ...للوطـن ، لم تكـتمل . لقد وطـأت قدماه ارض الوطن ، شاهـد مـدينته ، التقى اهلـه واقـربائه وناسه واصدقائه بسـرعة فائقـة،ووجـد بان الذكـريات لازالت محفـوظـة في رفـوف الذاكـرة وملفـات الوجـدان . اسرّه مشـاركـة ابن خالتـه القادم من مـدينة الحلــة والذي يكبـره ببضع ســنين بـزيارة المـدينة التي فيها ذكـرياته الجميلة،حيث طافا الشـوارع والازقة القـديمة والسوق المسـقف القـديم لمـدينتهم المسـيب ، يسأل عن اصـدقاء

الطفولة بهذا المقهى او ذاك ، مبتدئين من محلة النزيزة (موسكو الصغرى) ، من المقهى في حافة النهر حتى بداية الجسر العتيق .

لازالت نوافذ البيوت مغطاة بالمظلات او(مانعات الشمس) وتحتاج لتبديل قلبها (من الشوك والحلفه) من جديد . ولم تعد الازقة التراثية القديمة كتلك الايام محروسة من قبل روعة النساء واجمل البنات الشابات ممن يقفن يقضين وقت الفراغ وقت العصاري وايام الجمع ما وراء العماريات العاقولية مسلحات بالحسن بالجمال بالعفاف والشرف ، روائع من الاسماء لاتعد ولا تحصى ! . وخصوصا عند دربونة بيت جده السيد كريم ، تغيرت غرفتهم التي عاش بها الجميع ، ماتت الشجرة العملاقة (النبكة) في وسط الدار، وهنا دفنت الكتب والمناشير في البئر، واندثر.

توقفا عند النهروالمسجد القديم ، بعجالة مرقوا بسوق السمك ، دخلا السوق المسقف من الجهة الاخرى ، سوق القماش ، اسئلة متناثرة هنا وهناك ، اين صاحبنا البزاز السيد ، الرفيق ... !؟ ، اين محل بيع المرطبات الشهير وتلك المواعيد والجلسات؟ ، اسئلة متناثرة هنا وهناك، اسئلة فيها الالم والحسرة ، اين الحمام الكبير وصباح ايام الجمعة والاستحمام ؟ ، اين فلان وفلان ؟ ، هنا كنا نلعب ونلهو في علوة الانباري مع اطفال الجيران ، مع محسن ومحسن استشهد منسياً في حرب ايران ، تفحصا الدكاكين دكاناً دكان.

اشار ابن خالته لدكان ، كان ابوه يعمل فيه ، وهنا تلك المراءة اليهودية والتي كان يتردد عليها .. لم يعر لهذه الاشارة انتباهه ، ولم يفهمها ، اجلها للقاء قادم ، علم فيما بعد بانها بغاية الجمال وحيث تمر بالسوق التجار؛ يتيه ويخطأ التاجر في حسابه لذرعة القماش ،

لازال شباكها الازرق مركونا على الحائط يحتفظ باسرار السنين الجميلة . كان رؤوف انسانَ الطيبةِ والشعرِ والسياسةِ والعلاقات الاجتماعية ومعرفة بالنجوم والتنجيم .

انبعثت رائحة البهارات والفلفل والطرشي وهذا له سره الاخر يتميزعن باقي المخلالات جميعا ، اراد ان يمد يده ويتذوق ما هو معروض ، تسائل بنفسه الا زالت امه تعمل المكبوس بانواعه وتخزنه في الزير(البستوكة) المفخورة ، وعند العصاري ياتي الخال مخبئاً كيساً صغيرا من (البلاستك) النايلون ، يستغلون فرصة تواجدها داخل المطبخ ، يمرق خلف البيت بسرعة البرق يعبئ بالكيس مما طالت يداه ومما اعدته امه من مكبوس يفتح مشتهى النفوس، ويخرج على عجل ويلتحق بالخال بعد قليل عند بداية الشارع متوجين الى النادي او عند صدرالمشروع اوالى السدة لقضاء ليلتهم .

يقول عادل :

- ما اسرها من ليالي حينما اقضيها مع الخال المثقف المتواضع والاصدقاء يتجاذبون اطراف الحديث المتنوع من السياسة والفن وقضاء وقتا عند ضفاف نهرالفرات .

لقد احسن عادل زيارة اصدقاء خاله رغم اختلافاتهم في العقيدة والرأي ، قالها احد جيرانهم من الاصدقاء ، اخذ يبكي ويتحسر على تلك الايام ، ايام صداقتهم بالخال . اعترف واقر هذا الصديق الحزبي البعثي انذاك :

- بانه لم يجد باحسن واشرف من الشيوعيين بصدقهم ونزاهتهم ومواقفهم وثقافتهم وانسانيتهم . والجميع يشهد بذلك عند التواجد معهم .

ولكن بعد فـــوات الاوان .

مروا بطريقهم بالسوق الى محل تـومان فعمل مقلبا برضا عندما اعاد عليه عادل اسئلته المتكررة :

- كم سعر هذه الحبال ؟ .

اهمله رضا ولم يرد عليه بجواب ، بل اشـار اليه بالتوجـه لمساعده لمعرفة السعر .

مضى بعض الوقت ولم يعرفه رضا ابدا .

وبعد سؤال رضا لاخ عادل :

- من هذا الاخ ؟.

اجابه اخـوه :

- هذا الذي كنت تسـأل عنه دائما لقد عــاد للوطن .

تعــانقا وتجــاذبا الحديث . لحظات لا يعرف كيف انتهت .

واستمر عادل بالسؤال :

- اهذه مقهى مهـدون الكـبيرة اين تلك العصاري اين ذلك الشاي من صانعه لطيف ! ، اين مهدون بن جواد مسيبي ؟ ، لقد انسبيت المسـيب ومن حولها يابن جـواد وسبيتنا من بعدك ، اعجبا كيف انسـبت مقهاك وتيتم شارع المدينة .

اخذ يـردد كلمات من اغنية ... جـواد جـواد مسـيبي ... انت سـبيت اهل الهوى...شعجب انته ما تنسبي ،مسح مرفقه يزيح العرق المتصبب عن وجهه.

بطريقهم للرجوع الى البيت مروا بزقاق به بيت خالتهم القديم ، لم يبق فيه الا الجدران الملاصقة للبيوت الاخرى شاخصة تحكي للزمان احاديث الايام ، وقد تحـول البيت الى ساحة لبيع المواد الانشائية . دخلوا المكان بلهفة للبحث عن مفقـود، كالصبية يتفحصون ما تبقى من اثارالجـدران .

لقد تهدم جدار برلين وتفكك بناء الاتحـاد السـوفياتي العظيم بعـهد ميخائيل غـرباتشوف وبوريس يلـتسن ، وانهار الصنم وفـرالاقـزام ، صدفة ام عجب لازالت باقية جدران غـرفة خـالتـهم زهـــراء ، وجـــدران غـرفة الاســتقبال ،ولقـافـات الهــواء (البادكــير) لازالت موجودة ورسمٌ لحمامات السـلام ترفرف بجناحاتها.

يتكلم عـادل مع نفسه :

- نعم حركة انصار السلام ، ودول عدم الانحياز وقادتها قد رحلوا نهروا،جـوزيف بروزتيتو، وجمال عبد الناصر، وفيدل كاستروا قد تنحى عن السلطة لاخيه ورحلت انديرا غاندي ،السلم والتضامن العالمي، جاندرا وعزيز شريف ،والسلم في كردستان وعائلة البرزاني.

- تعلمنا رسـم الحمـام احسـن من ريشـة رسـام (لم يعلم بهم بيكاسـو) ، أشــاهد على ذلك المعـرض الفني الذي قمناه سـوية في طاشــقند يا نجــاح طاهـر!؟.

وعلى الجهة الاخـرى من الحــائط علـقـت ســـجادة كبيـرة ايـرانيــة الصـنع وصـورة لفـاتــن حـمــامـة واقفـــة وبجنبها ماكـنة خياطـــة ، عالقــة في ذاكـرته منذ ذلك الحـين .

جميل لازال الماضي وحتى باضعف الايمان يقاوم النسيان والطغيان .

منذ اللحظـة الاولى لوصولــه المدينـة سـأل امـه :

- اين مقر الحزب ؟.

دلته على المكان،وبسـرعة البرق سـاقته قدماه كانه للتـو افتقد شيئا ثمينا ... دخـل مقــرالحـزب كانه داخـل لبيته القـديم امنـاً ! ، اسـتقبله من كان في المقر، كشف عن هـويته ، تعـانقا ، ولبـرهـة ظنَ بان الشهيد سكران مرهـج ينتظره في الغـرفة المجاورة ومعه رفاق في اجتماع .

ادار بنظره الى جـدران المقـر فـوجدها فقـيرة خالية ، وقطع عـهدا :

- اذا كانت لي قســمة بالبقـاء لفترة اطـول،فسـوف اقـوم بتغطية الجـدران مزينة بذكـرى شهداء المدينة ومن رحل من المناضلين.

لم يتسن له اللقــاء بكل المقـربين من الاصـدقاء ، انهـى كل وقته بمراجعات الدوائر لكي يحصل على وثائق لا تقدم ولا تؤخر ولا تسـمن ولا تغني من جوع ، ويعرف بقرارة نفسه قد زعل عليه الكثيرمن الاصــدقاء في زيارته المفـاجئــة هذه،وهــو الاخــر لم يشــبع التمـعن في المدينـة كلها ولا الاقـرباء ، اضـاع من الـوقت كما ضاع منه العـمر.

بـدأ يتساءل عن المناطق التي يمرون بها :

- أهذه مدينة الاسـكندرية، الله يرحم ايامكم يا ايها الخبراء الروس ، وانتم كذلك اضـعتم انفسكم واضـعتم الاصـدقاء وضـعنا معكم . ولم نجن مــن المعامـل التــي شــيدت بمساعدتهم شيئا،اراد الشـعب الاشـتراكـية ، وان يصنع (السـكسـويل) والعــنترالجــرار الزراعي ،

وبفضل سياسة الاصنام أُذقنا الجوع والموت وخراب النفس والوطن والدمار.

- والله يرحم ايام عدن ، حيث كان الاخصائيون الروس ايضا يجلبون السينما ومعداتها لمشاهدة الافلام السينمائية التى يجلبونها للتمتع بالوقت وتغير الاجواء.

خاطب اخاه الاصغر متسائلا هنا وهناك كي يلهيه عن النعاس ، يحس بتعب اخيه الذي لا وقت له مشغولا في امورالدنيا ودنياه :

- أهذه مدينة الحوة ، كان الصبية يضعون النقطة فوق الحاء وكانت دائما معرضة للتنظيف وللتصليح . وقرية ١٤ تموز اصبحت من الكبر وامست ناحية كبيرة ، ولك الرحمة ياعبد الكريم قاسم .

وعلى اليمين قد حل الخراب باللطيفية ، احبها ولم يعرف لماذا احبها، اول دخوله لها حينما كان طفلا صغيرا في سيارة والده ، وكانت حفلة تخرج دورة للسياقة منح والده رخصة القيادة التي لم تؤشر له مخالفة قط طيلة عمره حسبما يعتقد ، كان حفلاً ليلياً غنائياً ساهراً وانوار قوية في ساحة كبيرة مغطاة بالعشب ، وليلة قمراء ، والرجال محتفلين بازهى الثياب ، وغرف طويلة وورشات ومكائن ، تبين فيما بعد انها الدائرة الزراعية. وذكرى اللطيفية له من رائحة شجرة الكالبتوس والتي حينما يستنشقها تدخل منخريه ويحس بانها قد دخلت في لفاليف رئتيه كلما اقترب من هذه الشجرة ، منذ تلك اللحظة واينما حل،من معسكر الرشيد الى اليمن الى الامارات، يتصور ويقدر ان هذا المكان وزرع هذه الاشجار وضخامتها من عمل الانكليز.

واحبها عندما كان احد جيرانهم في المحمودية المضمد الصحي محمـود ابو طلال ضامنا لبستان في اللطيفية،يأخذ الاطـفال ايام الجمعة مع بنـاتـه الجميلات الى هناك بسيارته الجيب وبهندام الصياد الانكـليزي بطاقيته العسكرية وبندقية الصيد ، كان الطريق المؤدي الى اللطيفية من الشارع العام مغطى بطرفيه بأشجار الكالبتوس والسير فيه جميل ، لقد قُصت وقُلعت كل تلك الاشجار ولم تعد تلك الطريق تفيئ بظلالها للمزارعين ، ولم يمر بها حسن افندي منذ وقت طويل .

يقول عادل :

- اصبحنا نحن نقلع والاخر يـزرع ، حيث ان شجرة الكالبتوس لا تحتاج لتلك الرعاية ، اعطها فقط ماء الحياة ، فتـراهـا شبت بسـيقانها البيض وجدائلها الخضـر وبرائحتها الطـيبة الطـرية يطيب ويحلو المكان .

- الا زالت صورة الـبنت الـريفية (المعيدية) معلقة في تلك البيوت ؟.

اهذا نهرالتناقض شـيشـبار وهذه قلـعة الاخـيــارمن بيت آل الرمـان . واطلق على هذا المكان بمثلث الموت،مكـان الـزرع والحصاد والجـني والخـير والـرزق والامان . وكم من انسان مـر بهذه القلـعـة والبستان ، ومن على يمين نهر شيشبار يوصلك الطريق الى مقام السيد عبد الله ، وكم ذبحت من النـذوروالفـدية والقـربان .

يتساءل :

- ما الذي حدث وتغير ؟ ، اليس هو الانسان نفس الانسان ! .

تجاوزت سـيارتهم كل نقاط التفـتيـش والسـيطرات ، مـروا بمدينته الاولى المحمودية ، وهنا خـزائن اخـرى من الذكريات،من هنا البدايات وهناك الامتدادات ! .

حل وقت الغروب ، وصلوا بغداد ، فتحوا الباب الرئيسي ، نفس الباب ونفس الدار، لازالت خالتهم الاخرى ، تحب الارض والزرع وحديقة الدار، تمارس دور زوجها لحبها له وحبه لحديقته ورعايته للورد الاحمر والاشجار. لازالت باسمة ، مشرقة الوجه صبوحة ، شجاعة نشطة طيبة ، تحب الناس والحياة والسفر ، احسنت العمل والمهام .سُعدت بقدوم ابن اختها الذي غادر منذ عقود ، كانت تحضر المكان لاستقبال ضيوف لها من اوائل الرابطيات ، كعادتها بسرعة اعدت سفرة الطعام،لاول مرة علم بانها قد شاركت عضوة بوفد رابطة المراءة العراقية الى النمسا منذ خمسين عام .

لقد وزعت كل المناشير... كل المناشير وخبرهم.

بغداد - وزارة الهجرة والمهجرين

وتلبية للقرار الصادر من مجلس الوزراء الموقر رقم ٤٤١ لسنة ٢٠٠٨ حول تسهيل عودة الكفاءات العلمية من حملة الشهادات ، عادت الكثير من هذه الكفاءات الوطنية الى الوطن الغالي ، منهم ممن ترك الوطن منذ عقود يئن في عذابات الغربة ، لا ذنب له الا حبه وتعلقه واخلاصه للوطن . من قدم وعاد للوطن .

يقول عادل في هذا الصدد :

- اطفأت نار الشوق والاشتياق ولكن أُشعلت نار اخرى في دواخلي ، احرقتني الصدمة والالم من المعاملة التي اصطدمت بها عند مراجعة الوزارات والمؤسسات الحكومية .

- ادور من مؤسســة الى اخرى لا احد يعرف لماذا ارسلني الموظف الى القسم الاخر ، ولا الذي في هذا القسم يعرف ما الامـــر، ومن هنا تبدأ رحلــة الانتظــار والعـذاب والتنقل والحـيـرة .

- البداية تبدأ بانتظارالموظف الذي يوجهه بكتابة الطلب ولفترة طويلة، وما ان تنتهي من كتابة الطــلب وتنتظره مـرة اخـرى للتوقيـع ، مثلا تفاجئ بان المـوظف المعني قد خـرج ولا احدٌ يعـرف متى يعـود مـرة اخـــرى .

- ولا اعرف متى وكيف ارجع الى محـافـظتي قبل الغـروب والطريق معرض للخطر، والله قد حدث الامـر باكثر من دائـرة حكومية .

ويؤكـد عادل :

- ويقال بما هـو شائع حينما تنجز معاملة او توقيع في هذه المؤسسات اوالوزارات في يوم واحد فهذا يعد من المنجزات ، اية منجـزات هذه ، وما عــلاقة البطاقة التموينية بالحاسوب بوزارة التجارة بالكرخ والرصافة وتوقيع مختار المحلة ودفترالنفوس ووزارة الخارجية وشهادة الجنسية العراقية وانا الذي هاجرت العراق منذعام ١٩٧٥ ولم احصل لحد الان على بطاقة الاحوال المدنية ولا التموينية ولا على جـواز السفـرالجديد حيث أُحـرقت كل الوثائق في عمليات الانفال، وعند قـمة الجـبل ،عند قبر زاهـر في منطقة بـيربينان الحدودية التابعة لمحافـظة اربيل عند المثلث العـراقي التركي الايـراني ، والقبـر شاهـد على تلك المعـارك التي خاضـها الانصارالبيشمركة ليل نهار. ووجه لهذا الموظف سؤالا ليرى ماهية اجابته :

- اتعلم اين يقع قبر زاهر؟ اسمعت بعملية الانفال ! ، أتخذ لنا خيرة من سبحتكم السندلوسية المباركة متى يكون لنا الفرج ؟.

لم يجبه ، واردف عادل بقوله :

- جئت للوطن حاملا حبي وشوقي، وهمومه في العقل والضمير تتنقل معي .

ويستمرعادل في معاناته بهذه المراجعة :

- انتظرت الذي بيده الحل طويلا ، طلب مني تصوير الاوراق والوثائق ، وبعد ان انهيت تصويرها عدت اليه ، وجدته خارجا ، انتظرته حتى انتهاء الدوام ولم استطع العودة الى البيت لخطورة الطريق ، فقررت المبيت ببغداد ، ومن الصباح قدمت الى الوزارة مبكرا ، لم اجد الموظف المعني في مكانه ، نصحتني النسوة وهن يحملن اباريق شاي الصباح بالانتظار، انتظار لا حول ولا قوة لي الا بالله العلي القدير، كل المسائل التي طلبت ارفقتها مع الاوراق، يقول عادل سألني الموظف بعد تفحصه الاوراق وسبحته السوداء الطويلة معلقة في رسغه :

- ما الفرق بين الدبلوم والماجستير، ومتى كنت في العراق ؟ .

يقول عادل اجبته :

- والله هذا الاسبوع رجعت للعراق تركاً الوطن منذ عام ١٩٧٥ قسراً وعدت تلبية للقرارالخاص بعودة الكفاءات الصادر من قبل مجلس الوزراء.

كرر الموظف سؤاله :

- من الذي يثبت بعدم عـودتك الى العراق ؟ .

اردف عادل :

- لعلك تثبت ذلك متى عدت ومتى هاجرت ؟ ، ولماذا هاجرت ؟. وهذه وثائـقي امامك وهذا اخـر جـواز للسـفر من فئة م صـادر من سـفارة العـراق من الخارج وفيه طمغة الدخول والخروج، وقبلها كان جـواز قـــديم من فئة ف والذي نفـذت صلاحية التمـديد ولم يسمح حينها تمـديده بالسفارة لغير طلبة النظام وكان مقتصرا على طلبة الاتحاد الوطني لطلبة العراق والبعثيين والذين تربطهم علاقات بالسفارة من المقيمين العراقيين .

اجابه الموظف لا يعرف ماذا يعمل وماذا يريد قوله بشكل صريح :

- اسـتطيع ان ادون فـقـط من تاريخ اصـدار الجـــواز فئة ام ، او تـأتيني بالجـــواز القـــديم فئة اف .

اوضح له عادل :

- من اين أتي اليك بالجواز الذي انتهت صلاحيته حيث صدرعام ١٩٧٥ في بغداد ، وعندما عملت في اليمن الجنوبي انتهت صلاحيته تمزق وتركته هناك ، وتوحد الجنوب مع الشمال وضاع الجواز ولم يعد لي من المعارف حيث هاجر اكثرهم الى بلدان اللجوء وقسم منهم من رحل لوجه ربه .

واجابه الموظف :

- انا لا اعـرف هذا . فلك ان تختـــار بين او بين !.

فهم اخ عادل وبوضوح مقصد الموظف واجابه بسرعة :

- انت تأمر وسوف يكون لك ذلك ، والسيد عادل ايضا ابن عمك من السادة .

يؤكد عادل :

- بان هنالك صور ومواقف ومعاملات متخلفة حدثت امامي وكانك لست في وزارة او مؤسسة حكومية ، يندى لها الجبين .

في هذه الاثناء دخلت شابة عراقية ذات لكنة موصلية مرتبة انيقة الهندام بيدها بعض الاوراق ، نهض عادل من مكانه ودعاها للجلوس ، شكرته على ذلك وجلست ودار حديث قصير بينهما اتضح انها من الاخوات المسيحيات ومن الكفاءات العلمية العائدة للوطن ايضا ، تراجع وزارة الهجرة والمهجرين حيث افادت :

-لا اعرف ما علاقتي بالهجرة والمهجرين وتسجيل الحصة التومينية ، وقد اضعت يومين في شبابيك الوزارة تائهة بتحضير الاوراق تلو الاوراق، حقا لقد صدمت ايضا من سوء المعاملة والانتظار والدوار. وانني قررت الرجوع الى بريطانيا،حيث تقابلت مع اخرين في مديرية البعثات امضوا واضاعوا الكثير من الوقت مثلي للحصول على التصديق الذي يأخذ الوقت الطويل،واعتقد لا فائدة للبقاء بعد الان. لقد فقدوا اعمالهم واقامتهم في بلدان اقامتهم التي عملوا بها قبل هذا الوقت .

يقول عادل بألم ولسان حال الجميع :

- حيرة يا ربي ، جئنا لنطفئ نار الشـوق للوطـن لهذه السـنين الطـويلة ولعـذابات الغـربة ولصـدأ الروح وموتها البطيئ ، احرقنا بنارٍ لم تكن في تصوراتنا وتفكيرنا ، نار اكثر حـرقة من الاولى .

اخـرون لم يحصلوا على اوراق ثبوتية مثل شـهادة الجنسية التي حرموا منها لسنين طويلة واخرون حصلوا عليها بشـق الانفس وخضر الدولارات التي كانت بحوزتهم بعد ان افـرغت الجيـوب ، ولم يتم تعيينهم وفق اختصاصاتهم ورجعوا الى بلدان اقامتهم . تذكر احد الواقفين في ممر الوزارة موضحا :

- حيـنما انتهت الحـرب العراقية الايرانية كنا مجموعة تاهت بين الحدود بين ايران وافغانستان ، وبين البازدار وطالبان ، وصلنا مشـياً على الاقـدام من كـردستان الى افغـانـستان ، وحينما علم الـرئـيس الافغـاني د . نجيب الله بان القادمين هم من العراقيين المناضلين من مدن العراق وكردستان بعد ان احرقت الارض والعشب وقتل البشروليسـوا هم بقطاع طرق مناضلون من اجل ان يعـم السلام والخير والعدل في العراق . اكرمهم ووهـبهم جوزات سـفـرافغـانـية لكي يحلوا بها بعضا من المشاكل التي قـد تعـترضـهم في الطريق ولاغراض المرور والعبور والتنقـل عبر البلدان الاخرى الى وجهتهم. يسائل عادل نفسه بمرارة :

- اذن اين مـكانـة الكـفاءات العلمية من الدعـوة الى الوطن ؟ ، جـئنا تلبية للنداء ... تاركين كل المغريات والملذات ولخدمـة للعلم والعمل جئنا للتعميروالبناء. وما الحل وما العـمل ؟ . فافتـح ذراعـيـك وقلبك يا وطــني لكل ابنائك المخلصين ! .

الحلة الفيحاء

لا يعرف عادل لحد الان سر حبه العميق للحلة الفيحاء اين يكمن ومداه يتعاظم طرديا كلما طال الزمن، يسائل نفسه :

- اهي الذكريات العزيزة مع طيبة الناس ام مع المكان ، وللجميع قد تكون لهم نفس الذكريات ، قد يكون هو الحب الجنون ، الم يحب قيس ليلاه ، اهذا حب وذلك حب .

بداية تلك الذكريات متعاقبة متقطعة ، بدقائقها محفوظة بلفاليف ذاكرته الامينة الصادقة ، منذ ان كان صبياً ، دخل مع جده المعمم بناية مخفرالشرطة اول مرة من بابه الكبير كدخوله قلعة من القلاع ، جلس تحت شجرة يتأمل الغرف المحيطة بالساحة الداخلية ، كان ذلك قبيل ثورة ١٤ تموز بايام . لقضية فحوها ؛ بان جده اهدى قطعة ارضه الزراعية الصغيرة لصديقه سيد كطوف ، والتي ادخلته مع الشيخ والسركال في المشاكل وتداخلها مع هجائه لاحد الاعيان بقصيدة ، كلها اجتمعت على حين غرة . الارض واقعة عند نهرالنيل المتفرع من نهر الفرات ما بين اثار بابل وقضاء المحاويل ، بالقرب من ماكنة الطحين للشيخ عبود القرغولي .

يذكر عادل :

- قال جدي عن جده أميرالمؤمنين علي ابن ابي طالب(ع) عندما حل في ارض الكوفة ؛ ان الارض لمن يزرعها ، وانا لا ازرع ولا احصد فيها فخيرٌ لي ان اهديها لصديق يرعاها ويزرعها ويعم الخيرالجميع .

حفظ عادل هذه المقولة منذ ذلك الحين ، تعاقبت القوانين تلو القوانين ، في الاصلاح الزراعي وتوزيع الاراضي على الفلاحين ، قرأ البعض منها،وعلم صدق جده واحترامه للشريعة والحق والعدل والدين والقوانين ، كانت اولها ارض الانبياء والاوصياء والائمة الطاهرين من سيدنا ادم ونوح وابراهيم ، والحضارات سومر وبابل ، ولائحة حمورابي وارض العراق . اخرجوهم هو وجده بعد الظهر في اليوم الثاني ، فرح كفرح طفل للتو يحبو اراد ان ينفرد بانطلاقته الاولى باي اتجاه ليكتشف عالم جديد.

دخلا وجده السوق المسقف الكبير، ابهرته ثقوب السقف تنفذ منها اشعة الشمس ، تبدو للناظر في عمق السوق كانها انجم الصباح المتلئلة

الزاهية ، وكطفل ابهرته انواع الدكاكين ، منها ما يفوح بانواع البهارات والعنبرومنها يفوح برائحة الحنطة والدبس والطحين ، ومنها ما يبيع مفخور الطين، ومانسجته الايادي في الريف من بواري وحصران ومهاف الصيف ايضا.

ابهره سوق الدجاج ذلك السوق الذي سكن فيه خاله وبيت الخالة وشهد فعاليات ونشاطات ومناسبات ومن كل الاطياف والمذاهب التى سكنت هذا المكان من يهود ومسيحيين ومسلمين ، جاء ذكره باكثرمن رواية ، ولما يحتويه من كثرة الاشياء للبيت والمسواق ومأكولات ما تشتيه الانفس من مذاق ، حركة حرة هادئة للناس وللدواب .

ابهره وهو يمرعلى الجسرالحديدي المشبك،مجرى ماء النهرالمتدفق بتياره السريع وتمايل موجه وانعكاس الضوء البديع ، يتعالى الى الاسماع صوت المطربين الريفيين داخل حسن وحضيري

ابو عزيزمن المقاهي تحت الجسر، عرف الاسماء كلها عندما كبر، وعندما اخبره والده بحادثة سيارة ووفاة المطربة زهور حسين عند الطريق في نهاية الحلة.

عند طرف الجسر، وبصافرة واشارة من شرطي المرور بخوذته السنفوزية تعبر باتجاه واحد العربات والسيارات ، ياله بذلك الوقت من نظام . مقابل الجسر مدخل السوق المسقف الاخر المكتظ بالمارة والمتسوقين القادمين من الارياف ، المملوء بتحفه من الملابس وعباءات مطرزة بلون الذهب والبريسم وفيه صناعة العقل بانواعها .

من هذا السوق تجمع لسيارات الخشب القديمة تاخذهم من منطقة الوردية الى مناطق النيل ، ويالها من متعة حقيقية حينما يجلس بالقرب من النافذة التي يملأ رئتيه برائحة البساتين وماتحمله من رائحة الجني والمحصول ممزوجة بالرطب والخياروالشمام والطماطم ورائحة تراب الطريق الحري والعاقول وقت العصروقبل الغروب ، ظلت في ذاكرته لوحة طبيعية مجسمة كاللوحات المجسمة لمعركة الروس مع الفرنسيين بقيادة نابليون في متحف البانوراما في موسكو تروي قصص وملاحم وبطولات تلك المعارك.

يصف عادل بحب :

- نعم ؛ لازالت في الذاكرة وقت الغروب والدخان المتصاعد من التنانير وقد التمت الشابات القرويات حولها باطباق الخوص، وتحت لساني طعم ومذاق رغيف خبز الشعير،نبح الكلاب ولعبها والقمر المنير، وغفوة الصباح على الوسادات الندية بالرغم من صياح الديكة وحركة الدواب .

بكبرته وغربته حينما يشاهد اويحضر معرضا للرسم ، تشده وتريحه اللوحات التي تجسد الريف العراقي لنهر ومشحوف وصريفة ، سعف وخوص يشم بعمق منها رائحة النخيل والصفصاف حيث يسكن الفقراء وعامة الناس ، يلفه الهدوء ويحذوه الامل بان النخوة العراقية لازالت باقية لدى البعض .

التصقت بذهنه كلمة السجناء السياسيين اول مرة حينما استأجرابوه مقهى مع احد معارفهم لجده وجدته من آلبو سلطان وهم من الفلاحين اصدقاء كالاخوة لابيه ، لازال يحتفظ باسمائهم نعمة وطعمة شباده طشت العامل الفني والنقابي عمل فيما بعد في كهرباء الحلة ولم يسمح له الوقت بمتابعة اخبارهم بعد ان قطع عهدا ان يبحث عنهم ضمن مشاريعه المؤجلة،كانت المقهى مقابلة لباب سجن الحلة المعروف ، بهذا اخذ يحدث نفسه عن معنى كلمة السياسيين وما الفرق بينهم وبين الاخرين ، والاخيرة يعرفها بكل الوانها. يعجبه ان يرَ المكان والطريق المجاورة للمقهى وعيناه تراقبان تتابع باب السجن والحراسة عسى ان يخرج سجين ما يعلم ما كنه هذا المفهوم ، يستمع لكلام الصناع ؛ بان السياسيين يلتقون يجتمعون يقرأون خلف الاسوار، مل الانتظار، افهموه الاقرباء الفقراء ذلك المفهوم ! .

بعد ان خطط السجناء السياسيون لعملية الهروب الناجح من سجن الحلة وانتشار الاخبار، لم يعاني عادل من التفكير لمعرفة المكان ، يعرف المكان وبوابة السجن والاشجار وساحة الكراج المجاورة للسجن وحتى وجود الكلاب السائبة ، كان فخورا متفاخرا طيلة

الوقت لمعرفته المفهوم والمكان لملحمة بطولية سطرها السجناء السياسيون واقعة وليست هي بالاوهام .

الشيئ الاخرهومعرفته بوجود قصرالملك فيصل الثاني في داخل بستان في قلعة الشيخ خلفة الحسن من شيوخ البوسلطان ، جدته زوجة لجده من هناك ، من الحمزة والمدحتية ، وبمناسبة دخل القلعة مع ابيه ودَلَفَ القصر خلسة ، ابهره ما راى ، تلمس كرسي الملك وهم بالجلوس عليه ومن ورائه التاج منقوشا بالذهب على الجدار ومن حوله علمان متقاطعان للمملكة وصور وتحفيات وابارياق في مكتبة من الزجاج .

في الديوان الكبير يجلس الشيوخ والرجال باجمل الالبسة والاطقمة واحذيتهم من لونين الاسود والابيض، الابيض والجوزي ، وتفوح منهم العطورالانكليزية ، جربها فيما بعد في الشباب ايام الجامعة وهي عطر البروت الانكليزي، ملتفين في حلقات يجادلون امورا اجتمعوا لاجلها .

يذكرعادل في مخيلته وهو صغيرا :

- اذا قدرالامر يلتمس هؤلاء الشيوخ عن طريق ابيه ليتدخلوا لنجدتهم ولمساعدتهم لاخراج السجناء من السجن ولا سيما هم ليسوا بمجرمين .

وعقودا من الزمن التقى ببعض هؤلاء المناضلين الابطال الاسطورة كمعلمين ومدرسين عادوا للخدمة وسمع عنهم ، والذين مر الكثيرمنهم بهذا المكان، وقرأ بعض مذكراتهم وبمن كتب هذه المذكرات ، وللاسف كل الاسف في بلاد الغربة والشتات ،

ومنهم من اسدلت عليه ستائرالاهمال والنسيان ، يتطلب رسمها وتاريخها من جديد وفي حلة اخرى، لانها ثورة ضد الظلم والطغيان.

صبياً، بفرح دخل السينما الصيفية على ضفاف النهر، ابهجته الانوار والصوروالدعايات اول مرة واخرمرة حتى فترة دراسته الجامعية ، لفت انتباه دخول الصبية والعوائل ، شاهد السينما من الداخل وفلم ام الهند واذرف الدموع ، عند انتهاء الفلم عبرالنهر بالقارباول مرة (البلم) المربوط بالحبل بين الضفتين الى الجانب الاخر لمحلة كريطعة .

هناك تجمع بيت الخالات والاقرباء القادمين من قرية السادة والعتايج والدولاب،ابناء واخوات واطفال ملتمين فرحين لحفلة عرس ووليمة لاحد ابناء خالته صفية ، ومن هنا بدأت بدايات الوصل بالرحم من الاهل والاقرباء وعلاقة الود مع بسطاء الناس .

اصبح القارب والمقهى المكان الذي قضى فيه امتع الاوقات لساعات الليل المتأخرة وتحت ضوء القمر، خصوصا عندما انهى مرحلة الثانوية يقضي العطلة مع اولاد ابناء الخالات الذين بعمره واولاد عمومتهم من البيرمانيين، كان ثامر احدهم شديد الطيبة والذي يخيل للاخرين بانه خفيف العقل ،هوالوحيد يعرف أسرارالقارب وفي اي وقت يحين أستعماله ويعرف شعاب المنطقة كلها.

من طيبته المفرطة يساعد الجميع وبدون استثناء وقت جني المحصول في حقولهم وبساتينهم او في بساتين ومزارع الاقرباء قضى الوقت في جوفها هاربا من العسكرية ايام الحرب العراقية الايرانية ، وعند طلب شابات المنطقة(الحديثات) والجيران منه المساعدة بمد اسلاك الكهرباء

او بتبديل المصباح مثلا او في تصليح بيوتهم لا يتردد لحظة في مساعدتهم ، ولذلك كسب التعاطف والود ، ويودوه لعيونه الزرق كانه (دون جوان) كريطعة .

اراد ثامراحد الايام التعيين حارساً في احد الدوائر ايام البعث من خلال وساطة احد اقربائه الحزبيين .
سأله المسؤولون في الدائرة :
- مالذي تعمله بعد الموافقة على تعيينك ؟ .
اجابهم بكل ثقة :
- في البداية سوف القن هذا الفلاني ابن الفلاني درساً لن ينساه ابدا ازاء تعامله مع الناس وهواحد المسؤولين الحزبين الكبار.
اجابوه :
- تفضل اخرج من هنا و(شوفنا عرض اكتافك) ولا تشوفنا وجهك مرة اخرى ، والا اجرينا معك اللازم لولا معرفتنا باعمامك، الا تعلم من يكون هذا الرجل ؟.
بعدها الزموه الباب ولم يتعين حينها ولطيلة العمر .

كانت اجمل الايام النزهة والتمشي عند نهاية كريطعة على طول الطريق المؤدية الى قرية السادة والدولاب والعتايج مع اولاد خالاته واولاد بنات خالته (صديقة) عند العصراو الجلوس عند الضفاف مقابل مقام (النبي ايوب) .

عند الغروب وعودة المزارعين والرعاة والحديثات والدواب واصوات ورنين اجراس الاغنام ولعب صغارها وتناطحها والابقار ومشي الجاموس الرزين (يا جاموسة عينيج حمره مثل الجمره شيشي) ومن الخلف يصحبه النهيق،شبعت وارتعت وطابت نفوسها وغنت، وخاتمتها النقيق الاتي من السواقي والكل في حركة ،

ورائحة طلع البساتين ، يبقى كل ذلك للسامع اللحن الجميل مع نسيم النهرالعليل مع لذعة البرد اواخر الليل .

يلف الهدوء ، السكون الاطمئنان والالفة كل الناس والبيوت ومحلات ما يسمى بالصوب الصغير، تفيض الموائد ، للعائلة للجيران ويسد رمق المحتاج والمسكين وحتى المتأخر العائد ، ويا لهدوء تلك القناديل الجميلة ، بنشوة البرد ينتظر بزوغ فجر جديد . قضى اجمل ايامه ، ايام العطل الدراسية في مقهى الاقرباء ، مقهى علي الكريم يتفيأ تحت ظل اشجارها يتقاسمه مع حمام الفاخته ، يتأمل في مجرى النهر يترقب سير موجاته الوسطية والملاصقة للضفتين يحس كانه جالسا على متن باخرة ينقصه المقود ، وكليوباتراه عروس النهر وفتيات ونساء الاحلام من مختلف الاعمار ، ذوات العيون السود والخضر والزرق والعسلية يغسلن ما يحملن من البيوت وقت الصباح .

دخوله المقهى تدخل في نفسه السكينة والراحة والابتهاج كالوقوف في محراب في مسجد او كنيسة ، يجد فيها بعض المتنفس يخفف عن نفسه هموما اشغلت تفكيره بوقت مبكرمنذ بدأ بقراءة الكراسات الممنوعة ، صيفا وشتاءا ، ويجد الراحة بلقائه بتلك الوجوه البسيطة الحالمة الحاملة بكل الطيبة . يقول عادل :

- المشكلة الوحيدة بالنسبة لي الحيرة مع من اجلس من اولاد الخالة واولاد بنت الخالة والاقرباء الذين كلهم اعزاء على القلب ، ولكل واحد منهم عالمه ، ابتدا بولعهم الذي لا يفارق كل الاوقات طاولة الدومينو ، الى عالم القراءة والمطالعة ، ومن يحب ان يناقش الاوضاع السياسية او نشاط اجتماعي لحل مشاكل معينة وزيارة مريض او حضور مأتم او عزاء ومساعدة الناس .

هكذا كانت هي المقهى الحبيبة،حتى في بلاد الغربة احب ذلك الحمام الذهبي ولشديه الهادئ الجميل لانه شدى من البيضة اول مرة للحلة ؛ياقوقتي وين امي بالحلة ، ياقوقتي وين اختي بالحلة . يراوده احساس بانها هي التي تحبه ويحبها ، لا تخاف منه حينما يطعمها ويمد يديه .

كان يحس عادل بنفسه بطلاً بابلياً حينما كان يسرح ويمرح حتى الغروب في حديقة الجنائن المعلقة، وبانه هومالكها وملكها وسوف تاتيه اميرة بابلية او فتاة احلامه بثوبها الابيض الناصع الطويل ويأخذ بيدها يدلها على كنوز مخبئة، ويفرجها على اماكن مرتفعة لم يعرف بها احد دونه الا السيد حسين .اشجارعالية كبيرة وياس وورود متنوعة كبيرة وسواقي استطاع ان يستطلعها .

كان يرعى الحديقة السيد حسين من اقربائه السادة وصديقا لجده وابيه ، يذهب مع جده الاخر بعد الفطور ويعودا الى بيتهم اسفل الحديقة عند الشارع بعد الغروب .

كان عادل يقرأ ويجمع اوراق الاشجارالمتنوعة ليتباهى بها عند حلول الفصل الدراسي الجديد يحلو له لصقها بدفتره ، بتجوله في الحديقة كانه ملك النحل انفتح جرحه ، جرح ختانه المتأخر، وقيل لهم :
- ان ذلك من شدة شمه الورد،وكم من الانواع تلك الورود ، نصحوه بشم الكيروسين (الديزل) بوضعه بقطن ملفوف على عود .

كانت جنة وجنائن ، دعاه صديقه الشهيد سمير ذات مرة وهم في طريقهم الى جنة عدن في صهاريج اليمن في منطقة خور مكسر :

- بربك يا سمير اهذه هي جنة ام تلك الجنائن المعلقة جنة ! ، رحمة الله على روحك يا سيدنا حسين .

اجابه سمير :

- وهذا هو الحصى الابيض والاسود وهذا اللبلاب ؟.

تذكراسابيع عبد الكريم قاسم ولاسيما اسبوع الشجرة والنظافة ، كم شجرة وشجرة زرعت،حينها لم يستطع التميز بين رائحة شجرة الكالبتوس ورائحة الاسفنيك التي يرشوها في الدوائر والمستشفيات والمدارس ، مالفرق بين البارحة واليوم يا حلتي ؟ ، قالها بحسرة وبألم ؛ نترحم على كل تلك الايام الحاملة كل معاني البساطة ، بالطيبة بالناس، طيبةٌ جميلةٌ انتي ياحلة ، اسمك منك وفيك.

كانت اسيجة كل البيوت على الضفاف وبالعمق عند الجسر الكبير وعند الطريق المؤدية الى بغداد مغطاة بانواع الورد والياس واللبلاب وعلى اليمين محطة القطار وسايلوات الحبوب ، وعندما تلوح للمسافرالقادم الساعة الكبيرة في دوارما قبل الجسر، ترتاح النفس ينبعث الامل والانشراح ، وتشير من بعيد بانه ها قد وصل المدينة .

عصفت بالمدينة الريح وحلت السنون العجاف وتغيرت الحال والاحوال ، لقد رحل نادي علي الطائي ولم يعد يزور ويتفقد مقهاه يناقش الرجال والشباب عن السياسة والاداب،ولم يعد يسمع كلامه الجميل وانتقاده اللاذع يخرجه من الاعماق، واثناء القيلولة يعود للبيت في فترة الغداء ليقرأ ما تبقى له من طريق الشعب بامعان،رجل سلم وسلام ، اسفاه وعذرا والف عذر أعتقال..!.

لقد ذهب حلو تلك الايام وأُفزعتْ الاحلام ، غُدر قاسم عبد الاميرعجام ، سبيتْ مقاهي الادب وحل الهمج والمرائون والغجر، طمرالنهر ، صمتت القوافي ورميت الاقلام .. ، عذراً أعتقال ، اغتيل المبدع وخنق الابداع ، واي ابداع ! ، اقفلت وحرمت دور الثقافة ، ولم تشهدي سيدتي ادبا وفنا مزهوا بالافاق بل دفنوه الظالمون بعيدا بالقاع ، ولم تعد تلك السينما للناس.. ولم يعد للسينما الناس هذه الايام .. ولكن الا تستنهضي يا بابل من غفوة وتنفضي عن ثوبك غبار شر ذمة اللئام ، وتوقدي قناديلك التي اطفأتها الرياح الصفراء وايادي الرعاع واخطبوط الظلام ، وتفتحي للناس لكل الناس باب عشتار.

احلى الايام وبعد انتهاء دوامه عند الظهر وحتى العصر يقضيها عند دكان العم رؤوف الخياط موسوعة للشعر وعمق النظر والخلق والمنطق والادب والسياسة وحركة النجوم ، جميل حلو المعشرمتواضع هادئ صبورضعيف البنية وبنظاراته كانه المهاتما غاندي جاء بزيارة من الهند الى الحلة ليحتسي الزحلة مع ورق الخس والفجل بدل الفل وشاي سيلان . بعد وفاة شريكة حياته التجأ للعزلة الى اخرايامه .

عند اللقاء به يزرع الثقة بالنفس من حيث لا تعلم ، رددها بانه لاتدوم الحال لا تشغل البال ... (عشنه وشفنه وبعد انشوف واقرينا الممحي والمكشوف) .عرف التنجيم ، يجلس عند ماكنة الخياطة لفترة طويلة يعمل يناقش يسهر مع اصدقائه القدامى الى ساعات متأخرة من الليل،تعطيه أسماء الاشخاص واسماء امهاتهم يشخص مكان عاهاتهم .

تعلم منه الكثير، وخصوصا التوجيه بالنجوم اثناء السير بالليل ، تأكد من صحتها عندما تعلمها من خدمته بالعسكرية وقرأ تعاليم جيفارا في حرب الانصار قبل دخوله الى كردستان ورصدها وتتبعها وقت حراسته الليلية الهادئة بالشتاء في ذلك الوادي العميق المعزول ، استفاد منها في تحديد اتجاه الشمال وتقوية البث والارسال .

يدور المنطقة كلها دورة او دورتين من الجسر الصغيرالى السوق المسقف الى المقاهي المجاورة على الضفاف ومن جنب الصيدلية الهاشمية يعبر ليدخل الدكان وبيديه حاملا الاكياس ، يشعر بالفخر كانه يدخل حوزة علمية او دينية او مجمع أدب ، وللعم رؤوف له فيها آيات ومفاخر من المواقف والشعر والعبر والامثال ، يجتمع الكثير من اصدقائه القدامى يتبادلون مختلف الاحاديث والكلام .

اسرّه اقناع العم ذات مرة بالنزهة باثار بابل ، تجول معه ، ارتاح لذلك الاهتمام ، كان ذلك اخر لقاء . ولازالت تدورفي مخيلته كلما مرمن جهة بابل ؛ العم وغروب الشمس واسد بابل والنخيل وشذرات ومقدمات من حب ملهب ابتدأ بها العمروفقدت عند الرحيل،وتبقى طيبة العم تفوح بذلك المكان كلما مر به المحبون والمقربون.

يقول عادل :

- غادرت الوطن منتصف السبعينيات متأملا ان اعود ذات يوم وبعد انفراج لكل هذا الغمام ، ولم تحقق حتى ابسط هذه الاحلام .

بعد تخرجه وانهائه الخدمة العسكرية في موقع اشغال المسيب عمل في مجال البناء مع احد الاقرباء من المفصولين السياسيين محسن الطائي واخيه موسى الطائي منتصف السبعينيات ، كانا من اجمل واحب الناس واقربهم الى القلب يحس بهم اخوته وكان بيتهم بيته ، كان يستمتع بحديثهم المشوق ونكاتهم التي تشق الحلق وتدمع العيون،وكانت حقا اجمل ايام العمرمن العلاقات الطيبة الانسانية والعمل والنشاط والحركة وخبرة في الحياة والعمل .

ولاتلمه الدنيا حينما يتم اللقاء بصديق خاله ايام معهد المعلمين المناضل ابو حاتم معن جواد ، بعمله ونشاطه الحزبي كان يجوب ويذرع المدينة كل شوارعها ومحلاتها ومقاهيها من الجندول الى مقاهي باب المشهد وشارع اربعين ومقرالحزب ، كان يقيم اللقاءات لمتطلبات العمل . ارادت الايام ان تبني لقلبه اواصرا بها يحب ويخفق ويشهق، في المنتزهات او بعيدا عن الانظار.

اثناء اشتداد حملة الاعتقالات التي طالت العراق كله ، اسرت به الريح الى بلاد الغربة وامتدت طيلة هذه السنين ، الغربة التي جنت عليه وعاقبته بدفع ضريبة البعد عن الوطن ، دخل الحلة وتجول بشارع ابي القاسم،عسى ولعله ان يلتقي بالمعارف او بصديق قديم ، خاب الظن ، مضى العمر وهو لازال يحلم ، يتألم ويتأمل ، دخل المقرالجديد التقى بمعارفه من الرفاق ، سألَ عن الاخرين ،كحل عينيه بصورالشهداء ،تمعن بهم ،صغيرهم وكبيرهم منهم الاصدقاء وحتى الاقرباء،كثيرون،عن حق انت حزب الشهداء .

انتظرخروج ابا حاتم كعادته عند المقر القديم ليذهبا لزيارة صديق او يوصله (بدربك حبيب) اخرالليل الى بلدته المحاويل معوقا بعض الدراهم ومقتصدا لمصروفات المقر على مدارالشهر.

لقد مل هذه المرة الانتظار، لم يلتق بفاضل وتوت ولم يخرج ابو حاتم ضاحكاً باسماً، اراد أن يقول المثل الكردي الشائع ؛ جبل مع جبل لا يلتقيان ، ولكن الانسان يلتقي مع اخيه الانسان ، كم مرة تغيرالمكان والعنوان وكم مرة ومرة التقيناك ابا حاتم ، في الطفولة ، في الحلة ، في اليمن ، في سوريا ، في موسكو، في كردستان ، لما تعجل هذه المرة غدر الزمان ! .

ولكن الضياع .. وقلة الورد الرازقي على اسيجة الدور.. اشعلت في احشائه الحرقة.

لا زالت نفوس طيبة ، ولازالت الحلة هي ... هي الاحلى.

تلك هي التي احبها.

ولما لا يكون عنوانه ومهجعه باخرالمطاف ، الحلة ؟.

كفاك الترحال.

٤

وعـاد عـادل بخفّي حنين

بعد ان انجز معادلة شهاداته مرة اخرى في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في بغـداد وتصديقها بعد ان امضى الكثير من الوقت والمال والتعب والانتظار الممل وغير المبرر،ولتمكنه اخيرا من مراجعة الجامعات في كربلاء وبابل والسماوة وتقديم وثائقه حسب الاختصاص ولا سيما ان مجال البحث في أطروحته في الخصائص المعمارية والانشائية لبناء الشقق السكنية اللائقة والمناسبة لذوي الدخل المحدود وتعالج أزمة السكن في العـراق .

اختار ان يبدأ سـفرته بمراجعة جامعة السماوة اولا ثم مراجعة الجامعات الاخرى بما يتوافق مع وقته،ومنذ الصباح خرج لكراج السيارات الاجرة في بابل وكان يرافقه نسيبه خوفا منه ان يتركه بمفرده خوفا من ان يصيبه مكروه في الطريق لاسيما ومن هيئته يتضح بانه قادم من الخارج ، والامر الاخر انه غادر الوطن قبل ثلاثة عقود وقد تغيرت الكثير من معالم المدن والطرق وان نسيبه ابن المنطقةومعرفته بالتعامل مع واقع أملته الحروب والحصار الاقتصادي والتي انعكست على كل نواحي الحياة للعراقيين وبشكل ملموس على مجمل العلاقات الاجتماعية وحتى في وسط وجنوب العراق وفي المدينة والريف .

لا يتصور لحد الان كيف استطاع ان يقطع المسافات كلها بين الحلة والديوانية والسماوة والنجف ومن ثم الرجوع الى الحلـة بيوم واحد ، ماهي تلك القـوة الكامنة الدافعـة التي اعطته كل هـذا الزخم. جلس كعادته في الطفولة عند الباب الخلفي لسيارة الاجرة فيما جلس

في المقدمة رجل بدشداشته البيضاء وعقاله المنفوش وبشاربيه (ثمانيه شباط) ، كل حدق في وجه الاخر.

ووفق مراسه حدد توجه الرجل بعض الشيئ؛ من شاربيه الشباطية المصبوغة وعباءته الناعمة جدا وعقاله (النصف منفوش) ، متذكرا رئيس الجمعيات الفلاحية (ابو عسكرية) في منطقته وكيف كان يتسلل من منطقة الحسينية عند غروب الشمس الى نادي الموظفين في المسيب،يجالس سوية الحزبيين ورؤساء المناطق ورجالات الامن ليتبادلوا الخطط لتنفيذ عملياتهم الاجرامية الخبيثة في قمع الناس ، والى ساعات متأخرة من الليل .

طيلة الطريق الى الديوانية حاول صاحب الشوارب الشباطيه ان يفتح الحديث معه بشتى السبل،واخيرا سأل عادل ودار بينهم سؤال وجواب:

- من اين انت قادم ؟ ، يتبين من لهجتك انك من بلاد المهجر ! .

اجابه عادل مباشرة وبتعمد :

- انا قادم من الاتحاد السوفياتي .

- ولكن لم يعد هنالك اتحاد سوفياتي ! .

- اقصد الاتحاد السوفياتي سابقا.

- يعني انت من الحمر .

اجابه عادل :

- لست من الحمر ولا من الصفر ولا من الخضر ولا من الهند الصينية، انا عراقي ، وطني امي وابي .

تلعثم ذو العقال المنفوش بعض الشيئ بالرد عليه ، واوضح :

- أنَّ الكثير من غادروا الوطن لاسباب معروفة لدى الجميع .

- ان الاغلبية من العراقيين هربت من الاضطهاد والاعتقال والسجون.

تكهن عادل بشكل قاطع لا يقبل الشك بان صاحب الشوارب هذا له اطلاع على ما يبدو بالسياسة او ربما كان حزبيا او من افراد الاجهزة الامنية السابقة والان غلف نفسه بالعقال والعباءة كالحرباء ، وكغيره الكثير ممن تعمم بالعمة واصبح عضوا في مجلس النواب، ومنهم من تم تعينهم سفراء ، اي حسب المثل القائل (من اين ما ملتي غرفتي)،اي ان هؤلاء استفادوا من النظام السابق والحالي بالمال والعقار،وكم من مناضل وطني افنى زهرة عمره في السجون والمعتقلات ومنهم من مات منفيا في بلاد الغربة ومن حملة الشهادات العليا والخبرة والغالبية منهم شردهم النظام السابق ولم يمتلكوا شيئا يذكرغيرالعوز والتهميش .

فمن هنا بدأ النقاش الذي لا مفر منه ، فاخذ ذو الشوارب يلوم عهد الزعيم عبد الكريم قاسم والاصلاح الزراعي الذي اتى به وموقفه من العشائر وعدم مناصرته للوحدة العربية والتى لم تتحقق .

تكاملت لعادل الصورة وصدق حسه وحدسه بهذا الشباطي بهذا الرأي ، وهو يعلم والجميع بان ثورة ١٤ تموز المجيدة جاءت من اجل العمال والفلاحين والفقراء وضد مصالح الاقطاعيين . عرج بقرضه مرة اخرى على العملية السياسية الحالية . نعم هنا يكمن مربط الفرس ، لم يمهله عادل وسأله :

- هل كنت تستطيع ان تتكلم بحرية في ظل النظام السابق ؟.

لقد صمت وخنس هذا الشباطي ولم يرد باية اشارة .

من خلال زيارته وتنقله بين المحافظات وهو المتلهف للاستماع لاراء الناس ولمعرفة مستوى تفكيرهم في المجتمع الذي غادره منذ عقود، صادف عادل الكثير من هذه النماذج المتلونة الانتهازية المستفيدة من كل الانظمة المتعاقبة وتتلون بالوانها القومية والمذهبية.

طيلة الطريق اخذ عادل يتطلع ويتحسرلان النزيز والسبخة والملوحة قد اكتست بها الاراضي والمزارع وهو يتابع المناظر منذ ان ابتعدوا عن اطراف مدينة الحلة مرورا بكل الاقضية والنواحي في الطريق ، ريف يسوده الهدوء وتكاد الحركة والنشاط فيه مقطوعة ، ريف تحسه قد عصفت به الريح ، متروك واهله قد هُجّروا ، لازرع فيه ولا نتاج زراعي او حيواني تلمسه من خلال مشاركة المزارعين ، بالعكس من ذلك تشاهد الطماطم والبصل الايراني قد اغرقت بها الاسواق في المدن وباسعار متدنية منافسة للمنتوج العراقي ، ولا تشاهد حتى ولو بقرة الا ما قل وندر او حتى عربة يجرها حمار، او ماء يجري من سواقي قريبة للطريق وكأن الريف قد خرج للتو من حرب مدمرة وما يزيد هذا التصور هياكل الاليات والسيارات العسكرية المدمرة والمتروكة من ايام الحرب ، وقد علاها الصدأ،ولا تشاهد امرأة ريفية قرب التنور ولا حتى تصاعد دخانه،المزارع خالية وقد تيبست الاشجار واحرقت في الحرب اشجارالنخيل وهجرتها الطيور ولا الحسناوات تمر بها منذ سنين فامست سعفاً وكرباً .

اخذ يدمدم مع نفسه :

- كم كان دخان القرى المتصاعد المنبعث من التنانير يبعث للناظر عن بُعد الارتياح ويحيطه بالامن والاطمئنان وعند وصول الاباء والكبار الى اكواخهم تلتم وتجتمع الاسر الى سفرتها وقت الظهيرة اوعند الغروب . وبعد الحرب تبدلت الاكواخ الى بيوت الطابوق مما قلل رقعة الارض المزروعة في عموم الارياف.

- لكن الريف امسى على ما يبدو متناسيا عرفه بعد فقدان رجاله وخاليا من جلسة الفلاحين واللمة والشاي والقهوة والديوان والاكثرية يذهبون للزيارت مشيا الى كربلاء ، حيث الاكل مجانا . لا عتب فهي تلك الحروب العبثية التي ازهقت بها الارواح وتحجرت بعدها القلوب وبقسوة،وتاه الانسان في وسط اجواء الضيم والظلم والظلام.

تماشيا مع المثل الشائع (زيارة وتسياره) ، لاسيما له كثير من المعارف والاصدقاء من ايام دراسته الجامعية في مدينة الحلة والديوانية والسماوة والنجف والعمارة،تمنى ان يحظى بلقائهم عن طريق الصدفة ، ما عدا الصديق عبد الله فاضل جاء من العمارة ، لا يعرف كيف علم بالوصول، فتم ذلك اللقاء المفرح بمحض الصدفة في شارع ابي نؤاس.

وصل مدينة السماوة متوجها الى الجامعة لتقديم وثائقه المطلوبة عسى وان يحصل على التعين في مجال التدريس،انتظر في الاستعلامات ، رحب به رجال الحماية ولكنه انتظر طويلا الى حين دخول وخروج الرجال المعممين ذوي العمائم السود والحطة الخضراء وبخدودهم الوردية لم تمسها الشمس على ما يبدو والذين هم اقل منه عمرا وبدون انتظارهم للدور، لانه اعتاد على الوقوف او الانتظار في الدور واحترام الطابور، اي اعتاد النظام حسب الاسبقية.

ومن الظاهر فقد ساد مفهوم دخول اي رجل وقبل كل المنتظرين بلفه عمامة اياً كانت بيضاء كوى الجبين والتحف ببرقع اخضر ولف نفسه بعباءة ، او عمامة سوداء وهي الافضل والاقوى تأثيرا .

حزت بنفسه بان رجال الدين هؤلاء يخرقون القانون والنظام وهو القادم من بعيد ، وهو المكافح وهو المناضل ، وهو ابن ال.. الملحه ملتزما يحترم النظام ، اكان عليه ان يعتمر اخر العمر عمة ، ولا سيما جده كان عالم الدين الذي علمه حينها المفاهيم الاسلامية وقراءة القرآن،ومن السياسة تعلم التواضع ونكران الذات، ايضحك على نفسه ، ايخدع الناس .

دخل الى العمادة ، ابدوا مجاملة في اول الامر لحاجتهم الى كثير من التخصصات الهندسية ، ولكن سرعان ما انحرف الحديث للابتعاد عن جوهرالقضية وانهم لا يعلمون بهذا القرار، ووضع الموظفون الصغار العراقيل والدخول بالروتين التعجيزي المميت ومتطلبات لم ينزل الله بها من سلطان ، لم يرض بها لا الاسلام ولا السلطان . يشهد الاصدقاء بان ادارة الجامعة بفترة ترأسها من قبل الدكتورغازي الخطيب من احسن الفترات في اجراءات القبول العادلة .

خرج وقد غرق بالعرق واغرورقت عيناه ، سحب ربطة العنق ، امتلأ بالضجر واليأس ولعن الساعة التي اقدم عليها بتلبيته قرار مجلس الوزراء ! .

في السوق تجول ، لم يلتق باحد من اصدقائه القدامى وبعضا منهم التحقوا بقوات الانصار في كردستان وخصوصا (ابو جهاد) زميل دراسته، سأل عنه فاخبروه بان اعدم عند توجهه الى داخل الوطن من كردستان ويعلم الله فيما اذا قد هاجروا الى دول المهجر.

كم تألم لعدم تحقيق هذه الامنية باللقاء بزميل الدراسة تعرضوا سوية لملاحقتهم والاعتداء عليهم من قبل اعضاء الاتحاد الوطني لطلبة العراق ايام الجامعة .

تمنى ان يكون له بساط الريح ليطيرالى اهله ولم يتبق الا ساعات معدودات للمغادرة ، كان من المفروض ان يقضيها عند الاهل والاقرباء ، لقد فاته الكثير من العمر ملتزما يحب عمل الخير ، يحسبه الاخرون بسيطا ساذجا، هل ان كل اموره قد حلها ، كل حياته وتأملاته وخططه بالمؤجل ، غدا سوف يكون احسن من اليوم ، هكذا كان طيلة عمره متألما لكل ظلم ومتأملا يؤمل النفس بالغد . لا يعرف كنهها .

يسأل نفسه :

- امعقول ان تحيط به كل جدران النسيان وابواب قلبه مفتوحة حبا وخيرا لكل انسان ، اهذا هو جميل العرفان للوطن وللناس . اصحيح هو ام على خطأ .. ، ام فعلا مسرحية الحياة انتهت واسدلت ستائرها ونَفَذَ ابطالها ولكل له دوره من الادوار.

ويؤكد عادل مخاطباً نفسه :

- ولتكن هكذا ، صار يكفي ، بحياتي وبتربيتي وسلوكي وتصرفي لم أدخر جهدا قط الا لخدمة الانسان ، مرتاح مطمئن بعض الشيئ حيث طيلة العمر لم يكن لي اعداء بل كثير من المعارف والاصدقاء.

عاد من السماوة متوجها الى النجف ثم الى كربلاء لاخذ حقيبته ، تجره ايضا قوة الحنين لتلك الذكريات والزيارات ايام صباه قبل اربعة عقود لحضرة الامام علي(ع) ولسوقها ومقاهيها ومكتباتها، تجول بعض الوقت عند الضريح واحزنه سيل الجنائزالذي لا يتوقف

كمجرى المـاء، وكثرة قـراء القبـور وطول قـراءتهم تتناسب طـرديا بعـدد الدنانـير المـدفـوعة او من هيئة وملبس الناس الـزائـرين .عند مروره بقضاء طوريج متوجهين الى كربلاء لفت انتبـاهه صبغ الارصفة حيث لاول مرة يرى بان الارصفة تصبغ بالاخضر والابيض ،وفي كل مـدن العالم تـبغ اما بالاسـود والابيـض او الاصـفـر والابيض للضـرورات والمنعطفـات والمداخـل والمنحنيـات ، اما هنا فقـوانينها لـيس لها عـلاقـة بالمقايـس العالميـة ، من الممكن ان تكون بها وجهة نظر او (خالف تعرف). اسـتغل فترة وجـوده في كـربلاء ، اراد ان يقطـع الشـك باليقيـن ، ذهب ليسـتطلع الامـر في جامعة كربلاء ، أتكون المعاملة نفسها كما في السماوة ، حاول ان يبعد هذا الشـك في نفسـه،متحججا بان اصابع اليد الواحدة غير متساوية والاخوان يختلفون في وسط العائلة الواحدة ، فـلتسقط الشكوك.

دخل الجامعة بعدما خضع للتفتيش من قبل حرس الجامعة ، حصلت عـدة لقـاءات في اعلى المستويات في العمادة وعلى ما يبدو بان هناك شـواغر وظيفية وحاجة ماسة للاختصاصات الهندسية الاخرى ولكن يجب ان يسـتأنسوا برأي رئيس القسم،خرج من الاجتماع منتشـيا وعـدل من ربطة العنق :

- عـلام اذن هـذه الشـكـوك مولانا ، والكل يخاف مخافة الله ، تفـاءلوا بالخير تجـدوه ! . ماهي الا خطوات وتكون عند رئيس القسـم .

سأل عنه الرجل الجالس في الممر كانه حارس الليل :

- اين مكتب رئيس القسم .

اشار بيده نحو الباب واضاف :

- ممكن ان يكون قد خرج ، جرب واطرق الباب عليه .

طرق الباب ولم يجد اي رد فكرر الطرق مرة اخرى، فبدى صوت يكاد ان يسمع قليلا ، دخل الغرفة ولم يستطع تميزه ، وجده صغيرا متكورا كالقنفذ عند طاولته قصيرا وبراس كبيرمتضخم ، يتبادر للذهن بانه انسان فضائي بعين واحدة هبط من كوكب اخر للتو لم يتأقلم بعد باجواء الارض،خلى وجهه من اية ابتسامة وبشاشة ولا حتى من الترحيب بالضيف،يداه مثقلتان مزدحمتان بالحجر المنقوش اتى به ربما من كوكبه السري،ولم يضيفه حتى بقدح ماء او شاي. تحدثوا حول الشواغر والاختصاص والحصص وتفحص الشهادات الممنوحة وعدد سني الدراسة الى اخره من الاسئلة وكأنه امتحان قبول للطلبة الجدد،ارعبه شعارالمطرقة والمنجل للشهادات الجامعية لعموم جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا.

يسخرعادل من هذا الوضع :

- تمنيت ان اكون في تلك اللحظات بقالا يبيع الرقي والبطيخ البس هذا المتخضم الصامت الملتصق بطاولته واضعه على رأسه لكي ازيحه من مكانه لكي ارى بقية هيئته ، وليس حاملا لشهادات هندسية تقع تحت رحمة هذا الفضائي الذي لا ينطق الا بالمثاقيل.

احس عادل من رئيس القسم هذا بانه يريد ان يضع العراقيل في اسئلة ليس لها محل من الاعراب،وسأله وكانه طالب في الدفاع عن اطروحته ونقاشها :

- اين المستمسكات المطلوبة ؟.

- نعم كل هذه المستمسكات الضرورية موجودة ، نعم ، والله كل الذي سألت عنه اجبتك وهذه معادلة الشهادات من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

تساءل عادل مع نفسـه :
- علام هذه الشكـوك ؟ . وكانت اجابتي كالصاعقة على رأسه ، ماذا يبغي من كل هذا ؟!.
واخيرا نطق رئيس القسم بالدرة المعهودة والمعتادة لديهم على ما يبدوا كسابقتها من الجامعات واجابه :

- ان التعينـات تتم من قبل الوزارة وتوقيع الوزير.

اردفه عادل :

- نعم اعرف ذلك ولكـن انتم بحاجـه الى هـذا وذلك من الاختصاصات الهندسـية ووجـود شـاغر ايضا ، وهذا ما تشيرون اليه لحاجتكم .

اقتنع عادل من خلال المحادثة المقتضبة مع هذا الفضائي وأكد :

- لا فائدة من هؤلاء فكلهم مبرمجين من قبل الوزارة او المدراء العامين والوكلاء بتهيئة الشواغر وتخصيصها لاناسهم الذين يرغبون ومن احزابهم،او بيعها للاخرين من خلال العلاقات خارج وداخل الجامعة وكل من هذه التعينات بثمن .

ويؤكـد عادل عن ماجرى في جامعة بابل :

- نفس الحالة تكررت معي حين قدمت اوراقي ووثائقي المصدقة الى الجامعة عبر لجنة القبول برئاسة مديري الاقسام في الكلية وبعد ان اجتزت امتحان القبول دعي المتقدمين لكل حملة الشهادات ومن مختلف الاختصاصات ومن مختلف البلدان والذين قد تجاوز عددهم الستمائة متقدم في قاعة كبيرة ، حضرالمنصة ممثل عن الوزيرعلي الاديب ومن الجامعة ملتحي الذقـون وامامهم جميع الاضابير، وبدأ

بالشـــــرح والايضاح الكاذب فـــي القبول والاحتياج للاختصاصات وتخصيص المالية لها مع وجود افضلية للمتقدم من ذوي الشهداء (ويقصد من الاحزاب الاسلاموية) وبدأ بقراءة الاضابير والمقبولين في التعينات ، وحين قراءته الاسم ، واضبارتي بيده يسألني :

- اين شهادة الدكتوراه ، واين معادلتها والتقييم في وزارة التعليم .

يقول عادل نهضت مسرعا نحو المنصة واجبته :

- الشهادة ومعادلتها في الاضبارة الخضراء التي بين يديكم وهذه هي الشهادات كلها.

احس ممثل الوزير ببعض الحرج ووضع الاضبارة جانبا. قُرأت اسماء المقبولين وهم خريجي الجامعات الايرانية والاهلية باختصاصات اللغة العربية والفقه الاسلامي والشريعة .

تعالت الاصوات بالسخرية والملل لهذا الانتظار والتأخير مما حدى باحدهم وهو خريج من جامعة في اليابان وخاله من علماء الزراعة في عهد جمهورية ١٤ تموز، وطلب اضبارته وقبل خروجه من القاعة صرح مستهزئاً :

- ان في عهد النظام السابق تحترم كرامة حَمَلَة الشهادات. وان كنت تريد ان تبني وطنا فيجب عليك بالاختصاصات العلمية اولا. (انها مضرطة) .

اعترض عادل على نتيجة الاجتماع في القاعة مخاطبا معاون العميد :
- لقد اجريت المقابلة واديت امتحان القبول لدى اللجنة وكانت النتيجة اجتياز امتحان القبول والان لم احصل على نتيجة تذكر ! .

اجابه المعاون :

- يجب عليك ان تلتقي بالمشرف التعليمي في الفرات الاوسط وتعرض المشكلة .

التقى بهذا المشرف المسؤول ويداه مغطاة بانواع المحابس وجبينه المكوي وعنده بعض الطلبة المراجعين ، وتيقن عادل بعدم اضاعة الوقت مع هؤلاء المخادعين . يا فرحة لم تدم .

خاطب نفسه بعدة اسئلة :

- عليه ان يجتنب الشك في هؤلاء وان بعض الشك اثم ! ، كان عليك ان تشتري سبحة طويلة وتملأ اصابعك بمحابس من الشذر والعقيق من الباعة المنتشرين بالشوارع في كربلاء وتلبس قميصا اسود .

- الا تعرف هذه اللعبة وانت الذي خاطرت بنفسك باكثر من مكان وموقف ، الم تعرف التكتيك ، او المراوغة ، الم تقرأ عن راسبوتين وصلته بالعائلة القيصرية وتحكمه بالقرار، غير مطلوب منك الا ان تشد خرقة بيضاء او سوداء بشكل عمامة يا اخي .

- انت مقامك اعلى من هؤلاء المتدينين زورا وبهتانا ومصلحة مادية بشراهة وبغطاء الطائفية المقيتة ، هؤلاء هم الفاسدون الذين ينخرون في جسد ومؤسسات الدولة والانسان البسيط والنزيه الوطني يدفع الثمن.

- الم يكن جدك الحسين (ع) ، الم تكن منذ صغرك قد ختمت جزء عم والقرآن ،الم تقم بزيارة مراقد الائمة في المناسبات ولبست قبل كل

هؤلاء دشداشتك السوداء ومشيت حينها حافيا في عشرة عاشوراء في شارع الامام علي(ع)،الم تستمع لقراءة مقتل الحسين لعبد الزهرة والوائلي وحمزة الرادود،الم تشارك في عزاء محلة العباسية المشهور، الم تدخل قبلهم المكتبة المركزية ، الم تكن وطنيا ، الم تساعد الفقراء والمحتاجين، الم تكن في حياتك صادقا ، الم تقدم من عمرك للنضال ، اين منك هؤلاء واين كانوا ؟.

- الم يعلمك حزبك التواضع ونكران الذات والذي اصبحت كل خلايا جسمك نكران ذات وتواضع حتى اصبح تواضعكم لا يفهمه الاخرون، بحق الله كيف استطاع الحزب ان يغرس فيكم روح التواضع والاخلاص لقضية الشعب والوطن ، اسأل الاصدقاء والمعارف من قريب وبعيد ، ابخلت بساعة لنفسك طوال هذا العمر، الم يقل لك صاحبك ابو خالد من السماوة ذات يوم في فترة الانصار بانك لا تستطيع الزواج لان كل وقتك للعمل . وكان عليك ان لا تلبس ربطة العنق لان هذا الفضائي لبس القميص الاسود ، وكان عليك ان لا تدرس الهندسة وتضيع العمر، بل كان عليك ان تتعلم السحر وكتابة الادعية وتجمع الاحجار الكريمة او صب المعادن لتصنع سلاسل لضرب الاكتاف وسيوفا للتصدير وقامات للتطبير،تبا لك ولامثالك !.

خرج لا يعرف ماذا يريد ، والى اين وجهة المسير ، يتمتم ، ردد بيت شعر من اشعار المتنبي:

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله واخو الجهالة بالشقاوة ينعمُ

وانفتحت قريحته للامثال الشعبية اخذ يرددها بألم وهو يروم بالخروج من الجامعة ، حملها منذ التحاقه بالانصارفي وادي (دراو) في كردستان، حين يجتمع الانصار للتدفئة على النارفي ذلك الشتاء القارص وخصوصا عندما تنفتح قريحة النصير ابو حسين ، (خوش

مـركة وخـوش ديج لوهـذي مثل ذيـج ، دولـتنه يحكمـها الـدعـيجي انا ... وانت ... ، ام حسين رحتي بوحده اجيتي باثنين ، تطرطري تطرطري فوزيرنا ارشد العمري،ادهده الغلق ولكه جدره ، تيتي تيتي مثـل ما رحتي اجيتي، اخـذي ... وروحي .. وخليني مبتلي بـروحي ، الاسـد عندما يكبر..الـواويه ، يامن تعب يامن شكه يامن على الحاضر لكه ، ناس تاكل دجاج وناس تتلكه العجاج ، المسكين فوك ظهرالبعير وعضه الكلب ، وين ما يخليها سـوده بسـوده مصخمة ، على كصة اليتيمـه غاب الكمر.

ليس هذا كله ، بل عـاد بخفي حنيـن ، وهذا هـوالمختصر والانسـب من العنـاويـن ، بعـد ان فقد كل دراهمـه ودنانيره واوراقه الخضر لفطـورالشـباب ، لعن عبد الرحمن ابن ملجم والشمر. وتذكـر(بُلـم) طويل القامة ذو الشعر الكث لم يغتسل لزمن طويل ليرميهم بحجارته اذا احس بأهانة ، يأتي من الحـرالرياحي مشـيا الى الخيمكة في كربلاء ثم يواصل المشي الى بغداد محـاذيا لطـريـق السيارات ثم يعـود بنفـس الطـريـق الى كـربـلاء ويعود الى الحر الرياحي ، بمعطفـه شـتاء وصـيفا لا يفارقه وجيوبه مـزودة بالخبز، يحفظ ارقـام كل السـيارات واصحابها التى تقف عـنـد سـاحة الخيمكة ، وعجبا ؛ يكون هادئا مسالما يتكلم معك بكل الهدوء ويعطيك الجواب لسؤالك حينما يحس ويلمس بان تعاملك معه باحترام لا تطيل من كرامته ، كان من الممكن الاسـتفادة منه في اشراكه لاستتباب الامـن وحركة السيارات.

ويخاطب نفسه:

- هل وصل العالم الى نهايته ووصل الى افتراق ، ايستمرفي الطـريق ذاته الى نهايته فوطنه هو حبه وعمـره وحياتـه وشـبابه وذكـرياته

وجوهره وديمومته وزاده وملحه وماءه ونوره وتاريخه وافتخاره ، وغيره لا ، ولا يعرف غيره من طريق فهو امله وامل الوطنيين من امثاله ، فليكن ما يكن وما تبقى من العمر .

غادر مدينة النجف يعصره الالم وخيبة الامل لما رأه من روتين وبطالة مصطنعة وفساد،وعدم احترام المواطن وكرامته ووقته وماهية الامر الذي جاء من اجله ، واذ لم يعتمر العمامة او بدون محابس يملأ بها اصابع يده مع اطلاق اللحية فهو لا يستطيع ان يتقدم طابورالمنتظرين ، اما اذا لم يكن يميل او ينتمي او يظهر نفسه لحزب اسلامي فيقرأ عليه السلام ، وترمى اوراقه ولا احد يعلم حول ما يعانيه هذا الانسان من ضيق العيش في الحياة .

بأم عينيه رأى اساليب اللف والدوران وحتى المقايضة في دفع الرشوة لهذا الموظف او ذاك في الدوائر وكيف يتعاملون مع المواطن لا حق ولا قانون، اخر العمر وعمره قد تعد العقد الخامس وهو لازال يحلم ويأمل،والله يحلم،يحلم بالعدالة الاجتماعية والقيم الانسانية كما في المدينة الفاضلة ، وتحل الاعياد والمناسبات ويرى البهجة والبسمة مرسومة على افواه الاطفال ، وما يحلم به بان يحتسي الشاي في المقهى على ضفاف نهر الفرات الذي يمر بمدينته بين الاصدقاء والناس الطيبين هذا هو كل حلمه لا يتعدى ذلك.

عند الغروب وصل مدينة كربلاء وفي اليوم التالي عليه ان يغادر العراق وذلك لانتهاء مدة اقامته خارج البلد وليجمع حوائجه.

غادر كربلاء قبل بزوغ الشمس متوجها الى مطار النجف يودعه الاهل جميعا ، فتشته الكلاب البوليسية الامريكية في الطريق قبل دخول المطار، وصله مبكرا كأنه لاول مرة بحياته يسافر فيجب ان يتقيد بالموعد والنظام ، ومن الاوائل وقف في الطابور، مع ذلك كان فخورا منتشيا لوجود المطار ، تتابعت افواج الزائرين من الهنود البهرة . سال عادل نفسه وهو ينظرللملازم الشاب ذو النجمتين :

- من اين لك هذا ؟ ، ومن اعطاك هذه الرتبة وهذا المكان وهاتين النجمتين وانت بهذا العمر! ، كان عليك ايها الملازم ان تنام يوماً او يومين داخل مغارة في الجبل الابيض بكردستان او تعبر نهر الخابور او نهر الشين بالشتاء ، يشدون الحبل بأسفلك لتعلم كيفية شد الحبل ، وكالذي علمني اياه ابو سهيل شد الحبل لحمولة البغل ، ومثلما عبره الشهداء ابوسحر وملازم زهير وابو هديل ، او مثلما عبرت موناليزا جبل قنديل، ولو تزوجت مبكرا لكان حفيدي الان اكثر منك بنجمتين ، نعتب على من ؟ .

- الله يرحمك ايها الشهيد ابو كريم ، اقول لك لم نحظ لا بحصير ولا حتى بسرير نوم عراقي منفرد ، وشاهد على ذلك الدكتور كاظم حبيب ، و(الهاط والبيط) التى تمنيتها بشكل اخر تقع فقط على رؤوس الاصدقاء الناكرين اولاد الناكرين للذات،(راحت الزلم الحامض السماكي وظلت ..) ، لعنة الله على زلة اللسان ، (لا حظت برجيلها ولا اخذت سيد علي) .

ازجره الملازم الاول واشار بيده ان يقف حتى يدخل الزائرون الهنود اولا، ولا زال قسم منهم واضواء آلات تصويرهم لم يتوقف

بريقها ، يتصورون للذكرى مع محافظ النجف فرحين مسرورين ، وكأنهم يتصورون مع احد الخلفاء الراشدين .

اخذ يكلم نفسه ويتساءل :

- من انت لتناقش الملازم ؟ ، وشتم الساعة التى اتى بها.

تمنى في تلك اللحظات ان يكون هنديا منهم ، من هنود البهرة اوهنديا من كشمير او حتى من بنغلاديش ، كان عليه ان يلبس فقط ملبسهم والوزرة الهندية في حقيبته ، ولاسيما انه تعلم كلمات من الاوردو بزياراته المتكررة للهند،او كان عليه ان يعرض لهم خدماته لتزويرهم الزيارة وهو يحفظ قليلاً من اصول الزيارة واشعارا من المقتل او من المقامات المشهورة كالتي عملها من قبل كاظم الرماحي حينما ادار الزائرين من اساتذته في معهد الطب في طاشقند عند عزاء والدتهم الى كل الجهات الاربعة بدون توقف فاتعبهم فشكروه وانهالوا عليه بالهدايا وهو يرتعد ويقول (الحنانة والمنانه ودرب الجسر منانه.. وانعل ابوه اللي جابكم مناك لهنانه.. ودموعهم تذرف) ، الله يرحمك يا كاظم الرماحي، (الذي يقرأ هندي والذي يسمع من اهل الجريبات) .

كان عليه ان يتفق معهم ويعملها ليصعد الطائرة ويرتاح من التعب وحرقة الاعصاب من التوقفات ونقاط التفتيش الى اخره من المنغصات التي رافقته اثناء الطريق . صعد معظم الهنود ولم يبق الا هو، نادى على ضابط الامن الذي لا يختلف عن ضباط الامن للنظام السابق ، وتركه وجاء اخر، الطائرة سوف تقلع .

ناشدهم ما الامر، واوضح :

- لم احصل على الجواز الجديد ولم احصل على الجواز العراقي طيلة هذه السنين، واوضح لضباط الامن الاخرين بانه المرة الاولى التي يزور بها العراق بعد اكثر من ثلاثة عقود ، فلذلك دخل بجواز اجنبي وحصل على الفيزا لكي لا تحصل له اشكالية لان حظه كالمثل الكردي دائما اسود الا بالرقي ابيض ، لا يهمهم بشيئ .

اجابوه :

- الان يجب ان تأتي بختم الهجرة في منطقتكم .

واوضح لهم :

- انا عراقي واستحصلت الفيزا من السفارة العراقية ، وهذه الجنسية وشهادة الجنسية العراقية تؤيد بانني عراقي وهذه وثائق قديمة اخرى، زاد من الايضاح عند قدومه قدم الجوازين للضابط فختم على الجواز الاجنبي ووضعهما في الحقيبة الى هذا اليوم ولم يبلغه احد في مراجعة دائرة الهجرة ولا يعرفها ولم يعلم بها ، كرر طلبه بحل المشكلة ، اراد ان يكلم المحافظ الذي التقط الصور التذكارية مع الهنود ، لم ينفع معهم هذا الامر. كلمهم مرة اخرى :

- باني أزورالعراق تلبية لدعوة ذوي الكفاءات وهذه المرة الاولى خلال هذه السنين ولست بارهابي او لص اني عراقي جاء لامر ولزيارة اهله ومدينته وهو ابن النجف ومن السادة المعروفين في الكوفة والنجف.

قالها بعصبية بعد ان نفذ صبره وخاف ان تكون الطائرة قد اقلعت ، وافادته الاخيرة هي التى حسمت الموقف بالموافقة بسفره واللحاق بالطائرة ، وانقلبت الاية فاخذوا يجاملوه بان السيد علي كان استاذي،

دفع الغرامة المالية بدل طمغة دائرة الهجرة وبدون وصل استلام واتجه مسرعا نحو المخرج المخصص !.

كان الاخير من صعد الطائرة والتي غصت بالزائرين وتفوح برائحة البهارات والكركم الخانقة كانها مطعم هندي وباكستاني ، ضحك بدواخله على هذه المعاملة التي تلقاها من زيارته لبلده وهو كزملائه قضى زهرة العمر بعيدا عن مغريات الحياة ، مناضلا من اجل ان يكون الوطن حرا وشعبه السعيد ، واخذ يتذكرالامثال الشعبية التى تتطابق مع الوضع العام ،عاد وكأن شيئا لم يكن ، عاد بـ ... اهكذا يجازى من يحب الوطن انواطا.

وعاد بخفي حنين الى بلد اقامته يبحث عن عمل جديد ، ومن قبيل الصدفة ان عمله السابق كان بحاجة اليه لوجود مشاريع متلكئة واشتراطاتهم بعمله بنفس المرتب وهم يغتنمون هذه الفرص لاملاء شروطهم وهذا الشيئ الذي لم يستطع عادل ان يفهمه ، واستغلوه استغلالا بشعا،حيث كان يعمل ليلا ونهارا وبالعطل الرسمية والاستراحات حرصا منه لانجاز وتسريع الاعمال بالعكس من المهندسين الاخرين، وكانوا بالضد منه لانتهاجه هذا النهج في عمله استراحة الاسبوع والذي ظل بالنسبة اليه بدون مقابل ، ظنا منه بان ارباب العمل سوف يقيموه ويعدلون وضعه ، ولكن لم ولن يستوعب عادل وهوالمهندس العراقي الوحيد عمله الذي يكون على حساب وقته وراحته وصحته ولم يستفد من السنين السابقة والتي كانت بدون اكرامية او تعديل الوضع،حيث كان الاخرون يتمتعون بالاجازات السنوية لبلدانهم والزيادات السنوية وحتى ما يسمى تحت الطاولة ،

وكل هذا بعيد عن تفكير عادل ولا يهتم لذلك طالما يستلم مرتبه بالحلال ، وقسم منهم يأخذ نسبته من المقاولين الثانويين .

يقارن نفسه بالاخرين وهو عن حق الاكثر كفاءة وخبرة من الاخرين في الانجاز والحرص وتقليل الكلفة وبدون مشاكل تذكر في العمل ، اضافة الى علاقته بمهندسي البلدية المشرفين على تدقيق المشاريع حيث يحرص على التدقيق الهندسي بنفسه لمعرفته وخبرته قبل دعوتهم للمشاريع، الامر الذي منحه الى اكتساب الاحترام والثقة من قبلهم وهذا الامر مهم في العمل الهندسي والانجاز بدون تأخير او اعادة العمل .

يحرص كذلك على العمال في سلامة وتأمين الموقع وساحات العمل من الاخطار المحتملة ، وعندما ينجز العمل يقوم بتوفير الطعام لهم ومن حسابه الخاص يعتبرها اكرامية وتقديرا على ما بذوله من جهد وهبة لوجه الله تعالى ، وينقل العمال بسيارته الى المستشفى عند حدوث طارئ ما ويراجع المريض عند الضرورات ، احبه العمال من خلال حرصه ومساعدتهم في حقوقهم ومتطلباتهم ، حيث يراسلونه عند مغادرتهم العمل الى بلدانهم ولسنين طويلة، وهذا الشيئ مكنه في انجاز المشاريع وفق برامجها .

هذا في ساحات العمل ، اما في المكتب فهنالك موظفون وعاملون ذوو شهادات مدارس ثانوية او معاهد اكثيريتهم من مصر وذوي توجهات دينية اصوليه وثقافة متدنية وخصوصا المحاسبين والمندوبين متابعي الفيز والاقامة والجهات الحكومية وغيرها، لهم من الخبرة المكتسبة ويتبادلوها من زملائهم في الشركات الاخرى ، لا يكترثون بما يخص المهندسين الا ما قل وندر حسب ميول وهوى العلاقات والارتياحات

ومستوى وعيهم والذي يطغي على مجمل العلاقات التنافس غير الواعي وغير الصريح بما يملى عليهم عمله وما يقرره ارباب العمل وهو الشيئ الذي يبتغيه لادارة عمله وهذا موجود في اغلب الشركات المتوسطة النشاط .

وكم من مرة وجد الظلم والانتهاك والخطأ بحق الاخرين وفي تغير بنود عقد العمل كمقدارالراتب الاسمي واجور البدل الاخرى ، بما يرتأيه المندوب ارضاءا لارباب العمل ، ويحرروا ذلك من وزاة العمل بعد ان يمضي على العقد فترة طويلة ، كما حدث له حينما كتبوا قيمة الراتب الاسمي الذي لا يؤهله لدعوة زوجته وعمل الاقامة لها وانتظر اشهرا لحين عمل تعديل على ذلك من قبل مندوب أخر، ويبقى المهندس بمعاناته اسيرا لموافقات العمل والاقـامة وما يقرره المندوب .

يقول عـادل :

- لقد حذرتهم ذات مرة ان الذي تقومون من تلاعب بحقوق الموظف هو عمل حرام ، وهذا الذي تستطيع قوله بشكل ملاحظة وان تجاوزت ذلك تعرضك لمضايقات مستقبليه فما عليك الا بالارتضاء بما قرروه . وياتيك الجواب بشتى التبريرات والمخرجات التى لا تستطيع خوض النقاش معهم اوالتحري عنها .

يقول عادل اعتـدنا في الاعيـاد ان نزور الاب الكبير بعد الصلاة ، يستقبل المهنئين بالعيد من الوافدين والمواطنين،واثناء وجبة الغـداء تجد الاكثرية حول الطاولات من المواطنين. ويقف الاخ الاصغر للارباب عند مدخل المجلس ليفض تجمع الصبية عند مدخل المجلس يلتقط من جيبه الجانبي بحركة سريعة باطراف اصابعه يستلها بالعـدد ويعطيها للاطفال الواقفين المطالبين بعيديتهم ، اثارت الحركة فضول عادل واتضح له :

- من الظاهر يُحضر شدة النقود من فئة الخمسة دراهم اوراق جديدة يسهل عدها وهي في الجيب وبهذه الطريقة يغطي طلب الصبية. لا يذكر عادل انه انتظر مأدبة الغداء طيلة السنين الا مرة واحدة عند التحاقه في الشركة .

يتذكر عادل عمله في موسكو ويقارن بين الشركتين بين عمله الحالي وعمله في موسكوبشركة يتلخص اتجاهها في تعمير وتصليح الشـقق السكنية القديمة في موسكو مع بعض الاضافات والتعديلات على المخطط الافقي للشقة وبما يسمى بالتعمير الاوربي حيث ان مواد البناء المستخدمة يتم استيرادها من البلدان الاوربية ، ويصف كرم الضيافة واهتمام المدير بموظفيه،حيث ربطت عادل بمديرها يوري ايكروفيج علاقة ود وثقة واحترام ، كان رجلا رائعا وهو من اليهود الروس صحفي ، ويوكل لعادل مهمة انجاز المشاريع المهمة لديه او للشركة.

وعند تقديم الحسابات للمبالغ المستلمة والمصروفة ، وعند استلامه الاوراق يمزقها ويرميها في سلة المهملات ويقول لعادل :

- انا لا احتاج لهذه الحسابات وهذه الاوراق ، قل لي كم تريد من المبالغ المطلوبة فقط ، وينحرف نحو خزانته ويخرج منها شدات من الدولارات تفوح برائحتها هذه مخصصات للمشـاريع حسب احتياجها ، تستطيع تصريفها في السوق السوداء ، انت تأمر وبأي وقت تشاء .

خرج عادل من الشركة متأبطا حقيبته بهذه المبالغ خائفاً من حدوث طارئ ما .

وحينما تقترب الاعياد وخصوصا رأس السنة الميلادية وولادة سيدنا عيسى المسيح (ع) يحجز قاعة كبيرة في افخر الفنادق في موسكو ويدعو كل العمال والموظفين مع عوائلهم لقضاء اجمل الاوقات في هذا الحفل المكلف ، كان حينما يخرج المدير لمعاينة مشروع ما سوية مع عادل ، يلتفت صوب عادل ويلزمه قيادة سيارته ويقول له :

- انت مرآة الشركة ، وانت هيبتها.

وذات يوم سأل عادل المدير يوري ايكروفيج :

- يوري ايكروفيج وكيف تأتمن وتأمن على المبالغ المستلمه من قبلي وصرفها على المشاريع ، وانا العربي الوحيد الذي اعمل كمهندس في الشركة .

اجابه المدير يوري ايكروفيج :

- انا جربتك بطريقتي ، وذات مرة طلبت منك انجاز القاعة في وقتها وزرت الموقع بساعة متأخرة من الليل ووجدتك بين العمال تعمل بيدك وببدلة العمال .

طرأت بعض التغيرات في الشركة لوجود سرقات في المواد الانشائية المستوردة من السويد والدنمارك والمانيا ، واتخذ يوري ايكروفيج عدة اجراءات فيما يخص اعمال التصليحات في المشاريع بأناطتها بالمهندس عادل .

وقد عمل يوري توكيلا لعادل لاستخدامه لسياراته الاجنبية .

يقارن عادل بين الموقفين بما تقدم .

استمر بعمله بهذا المنوال والعمل في مشاريع كبرى والذي فيه يراوده التمني بما لو كان هذا العمل وهذه الخبرة في اختصاصه تسخر في خدمة بلده يستقر فيه حاله حال زملائه في الوطن يكون ركنا وسقفا يأويه بعد هذا التجوال في بلاد الغربة .

وبعد الانتهاء من العمل يتوجه الى البيت او لحضور فعالية وندوة ثقافية يستمتع بها بعض الوقت ليغير من اجواء وضغوطات العمل وفي البيت يمارس هواياته الاخرى.

٥

بعد عودته الى دبي ولفترة طويلة ظل تفكيره مشغولا، يُسائل، يناقش نفسه طويلا في الصحو والمنام كانه فاقد العقل ؛ عن ما يجري :

- أحقا هو هذا الذي يجري في الوطن الذي تركه في السبعينيات .

مرت فترة العامين من رجوعه من العراق ، وذات يوم وفي لقاء عابر وبالصدفة مع مجموعة من العراقيين الاعضاء المشرفين في مجلس العمل العراقي،عرضوا عليه امكانية العمل في العراق ، تقبل الفكرة واجابهم :

- اتمنى ان ابني طابوقة في بلدي ، وهو ضمن حلمي المسروق.

واوضحوا له :

- سوف يفاتحون مدير الشركة لاجراء الاتصال والاتفاق .

- وكان المدير لهذه الشركة د. صائب نقاشه عراقي اصيل مسيحي موصلي ، فوافقت على العرض واتفقنا على تحديد اللقاء في العراق .

قطع تذكرة السفر الى العراق مرة اخرى ليقطع الشك باليقين ولا عتب عليه حينما يُسْأل ذات يوم . لقد تم اللقاء فيما بينهم في النجف حيث يقع المشروع حسب الموعد وكان في شهر محرم فاتفقوا على الخطوط العامة للعمل في المشروع وان يقدم عادل برنامجا لذلك .

وهم جالسون يسترقون النظر الى مجموعة من الشباب باجسام وعضلات مفتولة ممرغين اوجههم بالتراب واجسامهم وبدشاديشهم السود بالطين والوحل ، الامر الذي اثار استغراب عادل قبل استغراب الدكتور، وسأل عادل :

- ما هذه الممارسة التي لم اشـهدها من قبل بحياتي ، مع العلم بانني قد زرت النجف عـدة مرات ولنا معرفة بمراسيم عاشوراء .

اجابه عـادل :

-بانها بـدع جـديدة،وان هؤلاء الشباب مختلط من العراقيين والباكستانيين او حتى من الافغان على ما يبدو.

وبعد ايام واثناء زيارة عمل لهم الى كربلاء ، لاحضوا مجاميع تزحف على ارضية الضريح ولمسافة طويلة . حقا ان هذه المشاهد لم يشهدها من قبل وهو الذي كان يحضر مناسبة شهر محرم في كربلاء ويشارك في العزاء ويستمع للمواكب الحسينية وخصوصا عزاء العباسية المشهور ورواديده من اليساريين والشيوعيين الكربلائيين !.

وضح كل ذلك للدكتورالمدير نقاشة ، انها حقا بدع جاؤوا بها ويساندهم الدعم المالي من الخارج وخصوصا بعد ٢٠٠٣، ويقف وراءها ويمولها اناس محددين بالواجهة ، وجهات داخلية وخارجية ومعممون في الخفاء للامعان في التخلف ولاشغال الشبيبة العراقية وابعادها عن التفكير لحل مشاكلها بالتغيير وايجاد فرص عمل مشروعة . يتخلل ذلك في المساء عزاء الزنجيل والتشابيه ، طبعا تغلق كل الشوارع المؤدية الى مرقد الامام علـي (ع) وحتى اربعينية الامام الحسين (ع) ، في كربلاء والنجف .

ارجأ العمل في المشروع بعد الاتفاق مع المدير الى ما بعد زيارة الاربعينة لانهاء بعض التحضيرات وتنظيم الموقع لان جميع الطرق التى تؤدي للمشروع مغلقة، ولحين اكتمال بعض المخططات لاساسات الموقع ، ورويدا رويدا يزود المشروع بالمخططات التى تجهز لاحقا .

وما ان بدأ وشرع الموقع بالعمل توالت الصعوبات والزيارات من كل صوب وحـد ؛ عراقيل ومضايقات جمة ومن هب ودب ومن مختلف المستويات والاطراف وحتى مـــن المعممين ورجالات دين ومن

الاحزاب ومن البرلمان وما يسمى انفسهم بالمقاولين واشخاص ما يسمون ب(الخاوة) ومن بقايا النظام السابق ، وحتى من جهات ودوائر رسمية أخرى لا تريد ان تبدي المساعدة في انجازهذه المهمة، وكل شيئ يجري وفق العلاقات الشخصية المنفعية فيما بينهم تستفاد منها اكثرمن جهة ، علاقات اخطبوطية ومتخلفة . ومن الزيارت رجال معممين بمختلف العمائم حسب شدتها والصاية التي يلبسوها حيث قسم عرض خدمته للمشروع وتسهيل المهمات والاخر يسأل عادل :

- لنا نحن قطعة ارض في داخل المشرع ، تركناها ايام النظام السابق وسافرنا الى ايران والان نطلب التعويض عن هذه القطعة .

اجابهم عادل بكل احترام :

- اذا اردتم ان تتابعوا القضية فما عليكم الا بمراجعة هيئة الاستثمار وعقاري النجف .

ذات يوم جاء للموقع احدهم وقدم نفسه كمقاول يخاطب عادل بكبرياء :

- نحن هنا لا نسمح لغير المقاولين من خارج النجف بالعمل في هذا المشروع واعذر من انذر .

اجابه عادل :

- كلنا نحن عراقيون ، والشركة هي المقاول الرئيسي والبناء لصالحها وتستقدم للعمل الكثير من الشركات والعمالة العراقية حسب الاختصاص وحسب العقود ، وهنالك هيئة الاستثمار هيئة حكومية هي المسؤولة عن المشروع فيمكن لك ان تخاطبها .

اجابه بصلف :

- بانه تكلم مع الشركة وقد أهدوني علبة من التمر وساعة يدوية ! .

رده عادل :

- العافية بالتدريج .

أخذ يتردد على المشروع ويبرزعضلاته،اتضح فيما بعد انه نائب ضابط في مركز التدريب في المعسكر ومن الحزبيين البعثيين ، ركب الموجة وقام بانجاز بعض الاعمال في المحافظة وركب سيارة الدفع الرباعي وربطة عنق حرير. زوجته تعمل في دائرة حكومية .

كان زائرا غير مريح ولا مرحب به ، واتضح بان يزورالموقع كلما علم بزيارة شخص ما للمشروع لغرض الاطلاع على العمل ، ويبدأ باسئلته التحقيقية الاستفزازية والحراس يهابونه ويخافونه ويزودونه بالمعلومات .

اتضح فيما بعد بان احد حراس الموقع ابو عماد،كان ايضا سائقا عسكريا من نفس المعسكر يزوده بالاخبار .

يقول عادل ذات مرة سألني هذا الحارس ظنا منه بانني لا افهم بهذه المواضيع :

- انت من اي عمام ، ومن تتبع وما هي مرجعيتك ؟ .

يسأل نفسه وينظرلاحدهم :

- مالمقصود من اي عمام ! .

اغتنم عادل فرصة تجمع عدد من العمال من حولهم قبل الاجابة على الاسئلة وليدركوا الجواب الصحيح :

- اتعلم ما هو المؤمن ، يا ابو عماد ؟ .

اجابه الحارس :

-الصلاة والصوم والحج وزيارة آل البيت واتباع مرجعيتنا الموجودة .

اجابه عادل :

- ليس كذلك هو الايمان يا ابو عماد .

- الايمان والمؤمن الحق ؛ من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الاخر.

- واني من هذه المحافظة ومن عائلة معروفة في الكوفة ، فصار يكفيك من الاسئلة . (خلي بالك من الحراسة الليلية بدون غياب حتى اكمال السياج الخارجي للموقع) .

وتوالت المعوقات من جهات اخرى ، من مقر فوج الحماية للامام ، حيث وعند دخول المركبات الى المشروع يجب قبل دخولها استحصال موافقة الدخول وحسب الارقام ، وتقضي الوقت لحين وصول الدور للمراجعة لاستحصال الموافقة لرفع اتربة الحفرمن المشروع ونقلها الى خارج المدينة . وفي بعض الاحيان يضطر المراجع الى انتظار الضابط لوجود طارئ ما مما قد تؤدي الى تأجيل العمل الى اليوم التالي .

يستمر عادل بالتوضيح :

- اما اذا طلب لاستحصال الموافقة على دخول شاحنات نقل وخلط الخرسانة فتلك مصيبة ، حيث تخضع كل شاحنة الى تفتيش وفحص بالاجهزة (السونار) واذا تأخرت في هذا الازدحام تتأثرالخرسانة وتتصلب تتطلب جهودا مضافة في صبها في القوالب . مع العلم قدمت الكثير من المقترحات والحلول لتسهيل هذه العملية، اتفاق ووعود تتغير بتغير المسؤول .

المصيبة الكبرى بان الخرسانة تحتاج الى مضافات كيميائية مستخدمة منذ زمان لزيادة مقاومة الخرسانة يذكر عادل :

- نذهب الى هيئة الاستثمار لتقديم طلب لادخال هذه المواد ، وبعد كتابنا وكتابكم واستحصال الموافقة من هيئة الاستثمار في بغداد واصدار كتاب الى هيئة الكمارك في المنافذ الحدودية ، تاخذ الوقت والانتظار والتأخير في كل مراجعة من الطباعة الى الموافقة .

يقول عادل وعند مناشدة الموظف المسؤول عن اصدار الكتاب :

- يحاججني بان هذه هي مواد كيمياوية ونحن هنا مستهدفين فمطلوب التحري والتأكد منها وفحصها .

يوضح عادل لهذا المسؤول :

- ما علاقة المضافات للخرسانة بالاستهداف ، وهذه المواد تستعمل قبل عقدين من الزمن لاضافة قوة للخرسانة حاويات بلاستيكية تحتوي هذه المضافات من شركات عالمية ذات خبرة وتعمل لسنين طويلة ، وهذا شيئ جيد للخرسانة ، كان عليكم المطالبة بها لاستعمالها عند صب الخرسانة .

اتضح فيما بعد بان هذا المهندس يعمل في دكان يبيع المضافات من البهارات ومستلزمات لتحضيرالطعام فترة النظام السابق ، ولم يعمل باختصاصه منذ سنين ولا يلم بمدى التطور التكنولوجي في هندسة البناء والخرسانة حيث تستخدم الاساليب العصرية والحديثة التى اضافت متانة وسرعة في الانتاج.كثيرمن مواد العمل تنقل الى المشروع بعربات الدفع اوعلى الاكتاف لتجنب التأخير والانتظار في استحصال الموافقات بدخولها .

يقول عادل :

- والانكى من كل ذلك هو دخول مقاول خرسانة ليس باختصاصه ، لا يعرف قوة الخرسانة ومتانتها اوانواعها، حيث فرض نفسه من الخارج عن طريق مالكي الشركة ، عند الظهر تراه يسحب سجادة للصلاة وفي الليل يلعب الورق ولساعة متأخرة يقيم الولائم الفاخرة للجميع ، شائك الارتباطات على كافة الاصعدة من لبنانيين وسوريين وايرانيين ومصارف تبديل العملة .

ويؤكد عادل :

- في احد الايام تعطلت المضخة ولم تصلح ليومين مما اضطررنا للبحث عن مصدر اخر للخرسانة . وبعد الحصول على مصدر اخر ، قدم الى الموقع مع مرافقيه واخذ يتوعد ويهدد في حال الحصول على الخرسانة من أي مصدر اخر غير مصدره ، بان لا اخرج من النجف الا جثة هامدة .

هنالك مهندس مشرف طوله المتر ونصف (الحجي) ممثلا عن المالك يتابع وينقل التقارير للشركة ، ياتي الى النجف وحين وصوله الموقع يلبس الدشداشة يأخذ كفنه معه ويذهب لزيارة الامام ليلتقي مع المقاول بوليمة سمك وزنها اثنان كيلوغرام من البحيرات الاصطناعية القريبة ومختصرة فيما بينهما وكانه لم يذقها في حياته من قبل ، وفي الفندق المحجوز من قبل مقاول الخرسانة يتقاسمون مما كتب لهم من رزق بتعديل الكميات .

ان هذه التصرفات والسلوكيات لا تنطلي على عادل الذي له خبرة لا بأس بها في مجال الهندسة المدنية .

الامر الاخر هنالك مقاول ثانوي اتى به الدكتور لمساعدة عادل باخذ بعض الاعمال الثانوية ، مارس السوق السوداء ايام حرب الكويت ويظهر ببدلة الجيش الشعبي اكتشفها عادل لاحقا ، وما ان استحصل الموافقة فاذا بسلوكه واطماعه بدأت تظهر جليا في المشروع ، علاقته بالحراس والمواد والمقاولين الثانويين الاخرين ، ووصل الامر الى ابنه الذي عين فنيا ان يشتكي عند السيد مقتدى الصدر بمجرد ملاحظة قدمت حول كميات المواد وتدقيقها .

عجائب التى لم يعهدها المهندس عادل ولا المدير من قبل ، حيث كان يجري عملهم بشكل منظم وخالي من الروتين والفساد. ومن الجانب الاخر هنالك علاقات طيبة وتعاون من قبل بعض المزودين والمجهزين لمواد البناء ذوي سمعة جيدة في السوق .

اقام عادل علاقات عمل طيبة مع المحافظة وخصوصا مع نائب المحافظ بعد الانتهاء من اقامة السياج للمبنى وكتابة احاديث الامام علي بمقتــرح من المدير،ذللت الكثير مــن العراقيل في عمله وخصوصا في استحصال الموافقة على قطعة ارض لمعمل حديث متنقل للخرسانة خارج المدينة بمسافة معقولة وقريبة للمشروع ، قام بتسيجها الامر الذي ادى الى استنفار مقاول الخرسانة وازاد من استفزازاته وسلوكياته الشيطانية الصبيانية والمهندس ممثل المالك كان على علم بما يجري من سلوكيات ، والاتصالات جارية بينهم .

المهندس (الحجي) يخاطب عادل :

- يجب ان تجد علاقة معه .

اجابه عادل كالصاعقة :

- عن اية علاقة تتحدث ياحاج ، اتريد مني ان اقدم له ما يشاء من تغير حساب الكميات والتلاعب بها وهذه الخرسانة السيئة . لقد حجيت بيت الله الحرام وتزور كفنك بين يديك عندما تأتي لزيارة الامام ان

تقول كلام الحق والصدق، وتريد ان اعمل ذلك بالرغم عن عدم قناعتي ! .

فانا انسان مستقيم وأمين في عملي وصاحب مبدأ ، لا اطلب منه الا ان يقوم بعمله وفق الاصول وبدون هذه العراقيل ياحاج ، واذا الامر لم يوافقكم ، فارجوا المعذرة ، ولا استطيع الاستمرار بالعمل وفق هذا الاسلوب وهذه العلاقات الجشعة ، هذا هو موقفي ! .

في احد الاجتماعات في المحافظة حضر مقاول الخرسانة ، لا احد يعلم مالسبب في دعوته لهذا الاجتماع او بدخوله عنوة الى داخل الغرفة ، وعندما فض الاجتماع توجه الى عادل وامام الحضور ليسمعهم القول :

- انت قادم من دول اوربا وتحمل افكارا اشتراكية الحادية تريد تطبيقها لا تتناسب مع عملنا هنا في النجف .

اردفه عادل بالجواب :

- اذا كنت تريد ان تلصق بي هذه التهمة ، فانني اقول لك اتشرف ان اكون من حملة الفكرالاشتراكي، فالفكر الاشتراكي المنظم للحياة والساعي الى العدالة الاجتماعية ، وقادته معروفون في مدينتنا ، نظيفو اليد والضمير، وتهمة الملحد فهي تهمة المفلس ، فانا من السادة المعروفين بتاريخهم ووطنيتهم ومواقفهم وثقافتهم، والشهيد سلام عادل الذي استشهد في ١٩٦٣ هو ايضا من بيت ديني ومن السادة الموسويين، فهذه لا تنطلي على الناس المدركين ،المهم عراقيا مخلصا امينا ونزيها في العمل وعلاقات العمل .

سكت وصمت الجميع وانظارهم تتجه نحو عادل من رده الشافي لهذا الحرباء اثلج صدورهم ، وعدم الرضى لرأيه الذي ليس في محله وبدون لياقة ادبية في هذا الاجتماع المخصص الى توضيح المعوقات التى واجهتهم خلال هذه الفترة المنصرمة .

يذكر المدير التنفيذي الدكتور صائب نقاشة باننا كنا في زيارة لبغداد مع المالك وحضر الحرباء للدعوة لا يعرف من اتى به فيقول :

- هنالك جدارية فيها صورة سلام عادل مع صور اخرى ، فاشار الحرباء للمالك بان هذه الصور لشهداء من حزب الدعوة ، وهذا احد قادتها من النجف .

يؤكد الدكتورصائب فلجمته بالايضاح :

- بان هذه الصورة هي للشهيد سلام عادل سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي مذيلة بالاسم والمدينة والتأريخ ، فتلعثم الحرباء ولم ينبس ببنت شفة .

يؤكد عادل :

- بان هذا الحرباء طلب مني ان يتحدث جانبا ووقت العشاء واراد ان يناقشني بالتعاون معه وما احتاجه سوف يلبي طلبي ، وما ان انتهى من حديثه متوقعا مني بتغير رأيي ، فجأة فتح زر التسجيل في هاتفه (مبايله) الحديث ! .

استغرب عادل لهذه الحركة :

- لم اتوقع ان يقوم شخص بهكذا ممارسة صبيانية ، وكان التسجيل بعكس ما توقع ، وهنا يتأكد صحة اعتقادي بهؤلاء النماذج من البشر السيئين .

من فراسته لم يبشرعادل خيرا ولم يسر بالتعارف بهذا (الحاج) الكربلائي بتاتا،لعدم وضوح موقف معين منه ازاء العمل وتقدمه او تقديم المقترحات التى من شأنها تسارع وتيرة العمل اوحتى السؤال على تهيئة المخططات او مراجعتها او بخصوص المقاولين الموعودين

من قبل الشركة والعمالة الفنية والمواد الانشائية المطلوبة وتوفير الاموال اللازمة لتغطية اعمال المشروع ، وأيقن عادل بان هذا الحاج فقط استعراضي ناسيا الهندسة لا يغني من جوع ، ولم يتوقع باستحصال الموافقة على الارض ونصب وتشغيل معمل الخرسانة ، ومن هنا لايستطيع الحاج القزم ان ينال من عادل . وقال له وهو يستفسر :

- كيف لك هذا وبهذه السرعة ان تقيم كل هذا!.

رد عادل بثقة الرجل المنتصر :

- هذا هو مردود العلاقات الطيبة حينما تبنى بثقة وبصدق وتفاهم واحترام . وشكرا لمن ساعدنا في ذلك من اجل المصلحة العامة وبدون مقابل .

بعد انتهاء يوم العمل يذهب عادل للسوق ليشاهد الجديد من المواد الانشائية في المخازن ، وقد بنى عادل مع اصحاب المخازن علاقات طيبة من الود والاحترام لمكانة وسمعة عائلته. حيث ياخذ ما يحتاجه من المواد وعند استلامه المبالغ يسددها اليهم اول باول . ويقضي وقته الاخر في نهاية الاسبوع لزيارة امه واقرباءه واصدقائه في المدينة او لحضور المحاضرات في الدواوين والمجالس النجفية في سراديب بيوت المدينة القديمة القريبة من المشروع مع اصدقائه ورفاقه ومعارفه في النجف ، ويعود الى المشروع لمتابعة الحراس . ذات مرة ترك جهاز الحاسوب في مكتبه لاتمام ارسال التقارير الى المدير العام ، فوجد الغرفة مضاءة ، ولا احد غيره يملك المفتاح ، كرر هذا التحقيق فايقن بان المهندس الذي اراد ان يشكيه للسيد مقتدى يفتح المكتب بعد

خروج عادل من المشروع يقوم بفتح الحاسوب وقراءة التقارير وتسليمها لابيه المقاول الثانوي.عالج عادل القضية باخذ الحاسوب معه عند المغادرة .

ان هذه التصرفات والسلوكيات والممارسات لا تنطلي على عادل الذي امضى سنيناً في قوات الانصار واكتسب خبرة الجبل .

عند فترة الغداء يتجول في السوق المجاور، حيث التقى وبمحض الصدفة برفاق قدامى كتب الله لهم ان يبقوا على قيد الحياة من النظام السابق وتواصلوا بتكرار هذه اللقاءات وتبادل بعض الكتب .

لفت انتباهه بان هنالك اناسا من المصريين والسودانيين قد بقوا في هذه المناطق وحتى انتهاء الحرب العراقية الايرانية ولم يعودوا الى اوطانهم ، يعيشون ويعملون في كل المحافظات العراقية التي توقفوا فيها في فترة شبابهم ، جلب انتباهه ابو (كاسم) ابو جاسم هكذا ينادوه حتى شرطة نقاط السيطرة يعرفوه ، كانت لديه (بسطة) يبيع السجائر مصفوفة بشكل جميل تجذبك من بعيد،يقف معه يسأله عن السجائر ومصدرها ثم تعززت العلاقة فيما بينهم واسره بسر :

- ان جميع التبغ لهذه السجائر هو منشأ واحد ، تجمع بدول فقيرة بعلب ملونة ، لا فرق بينها في التبغ او القطران،نبيعها لكي نجمع مصرفا لشراء الجديد ، وقد لا نحصل عليها يتطلب الانتظار لحين وفرتها في السوق .

شكره عادل واصبح وديا عند اللقاء او عند شرب شاي العصر والشراء من سجائره: - شكرا لك ابو (كاسم) على هذه المعلومات .

وتكلم مع نفسه :

- لقد امسينا يا ابو كاسم ، انا وانت في الحب سواء ، وقد تكون انت احسن وافضل مني حالة واحوال،حيث لا ركن لي ولا سقفا لي ، ووطن اغلق الابواب بوجهنا واوجه ابنائه المخلصين .

كان ابو محمد نجارا، جاء حاله حال العمالة المصرية للعمل في العراق في زمن الحرب العراقية الايرانية ، فمنهم جمع الاموال ورجع لوطنه ومنهم من كون عائلة واطفالا واحفاداً في العراق ، تزوج والده من امرأة عراقية وبقوا فيما بعد في النجف طيلة السنين لحين وفاته ، وهناك صور اخرى من حياة الاجانب والعرب والذين بقوا في العراق الى اخر حياتهم ولا زال الكثير منهم في المحافظات العراقية .

بنهاية الاسبوع يذهب ليزور أمه ويخرج للمدينة يلتقي باصدقائه القدامى بعد العشاء في المقهى واللقاء مع من اعتاد الخروج مساءا ومن تبقى منهم. التقى مرة بصديقه قاسم زميل الدراسة الثانوية ، ارتكنوا في المقهى تبادلوا الحديث والذكريات ، وما ان انتهى الحديث حتى طلب قاسم الاستأذان لذهابه للبيت والنهوض مبكرا للزيارة ، وافقه عادل بطلبه وذهب مسرعا وامسى عادل يفكر بهذا التصرف والتغير وسأل :

- الم نقوم بالزيارة في فترة المدرسة وخصوصا أيام الخميس مساءا ، ولم تكن بهذه التكلف والتصنع .

يقول عادل :

- بان قاسم ما فتئَ بالسؤال وعن متابعة اخباري عند مقابلة أخي او والدتي في السوق ولعدة سنين ، حتى فترة ٢٠٠٣ .

يعود عادل بعد العشاء فيرى الجالسين يتبادلون ويشاهدون الصور لهم في هواتفهم النقالة عند مدخل الامام والضريح والشباك .

وينب أخر بان الله وهب له هذه الزيارة السهلة والسريعة .

نظرعادل لهؤلاء ولصديقه قاسم بنظرات عتب،ويمضي في تفكيره يتساءل :

- مالذي جرى لهذا العالم وحتى الاصدقاء ، فعلام هذا التغير !.

ويذكر عادل ويؤكد :

- في احد الايام تعطلت المضخة وتوقف العمل ولم تصلح ليومين مما اضطررنا للبحث عن مصدر اخر للخرسانة .

وبعد الحصول على هذا المصدر، قدم الى المشروع ابن أخته المعتوه ومعه حفنة من عماله واخذ يزمجر ويرتعد وبطريقة غير حضارية ولا اصولية وصرح :

- لا تدخل اية خلاطة غير خلاطاتي في هذا المشروع ، واذا حصل ذلك وجلبت خرسانة اخرى فمصيرك جثة هامدة لا تخرج من حدود النجف. ويرده عادل بكل جرأة :

- يعد هذا جيدا على الاقل يكون مكان الدفن معلوماً .

يقول عادل في نفسه :

- يجب ان تكون قويا في موقفك امام هؤلاء المخادعين الطارئين ولا تتنازل عن حقك .

سقراط الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد من اعظم الفلاسفة قال:

- ليس الموت أسوأ شيئ بل العيش بدون كرامة وصدق هو الاسوأ .

ويقول الكاتب المسرحي الروسي انطون تشيخوف (١٨٦٠ -١٩٠٤) في هذا الصدد في قصة المغفلة :

- ما ابشع أن تكون ضعيفا في هذه الدنيا .

ابلغ عادل هيئة الاستثمار ومعارفه من الضباط في حماية الفوج حول هذا التهديد بالقتل ، لكن لا حياة لمن تنادي !.

خرج عادل بعد انتهاء عمله في المشروع متجها صوب الكوفة وقت الغروب وقادته خطاه الى ضفاف النهر في نهاية المدينة ، السماء من فوقه رمادية زرقاء تعلوها الغبرة ، دخل في مقهى مطلة على الضفاف تكاد تكون فارغة ، جلس عند حافته ، كالاطفال حينما يتسارعون للصعود في (باصات) الخشب القديمة لاتخاذ مقاعد قرب النوافذ ، أخذ يتأمل المجرى المتدفق وارتطام موجاته بحافاته بقوة .

في الضفة الاخرى من الفرات يشاهد نخيلا باسقَ سعفه متدلي يابس، من الظاهر أنهكته الايام ، يبين حتى في الظلمة جراء انعكاس اضواء المدينة من على البعد.

يناشد نفسه :

- هذا شيئ حسن ! ، ولكن ما الذي ينقص ذلك ؟ .

ويجيب :

- ينقص ذلك؛ رائحة النخيل بطلعه وسعفه المخضر الريان المتراقص مع نسمات النهر ، للنخيل غصة كغصته لم يروه ماضي الايام ، ولم تعد شمة ونكهة ما مر من الاعوام .

ينظر الى الطرف الثاني من ضفة النهر ويسأل مخيلته :

- ألا زال جده ذو العمامة السوداء يقرأ كتيباً ، وبدلال القهوة العامرة يستقبل ضيوفه هناك،أثناء فترات الصلاة وما بعدها ،تلك هي اراضيهم

التي لا يتذكر منها سوى مضيف القصب الكبير الطويل ، المزدحم بالزائرين والمحتاجين في الليل والنهار، تفوح منه رائحة القهوة والهيل، تبهرك علاقات الناس الودية ، أحاديث المساء ، حديث الخير والطيبة ، صيفا وشتاء.

لا حاجة لها بعد الان ، .. رحل من كان يرعاها ، ورحلت الشبيبة من اقربائه من كانوا يدرسون في الحوزة العلمية واعدم السيد علي وأخوه .

ولم يحتفظ الجد بقطعة الارض الصغيرة وحتى بجزء من بعض الامتار لا في الكوفة ولا في منطقة النيل حيث وزعها على الاصدقاء قبيل ثورة الرابع عشر من تموز . وها أنت أيها الحفيد المتألم والمتأمل المجهول تجوب مدن اللجوء ووطنك وازقته لا ركن لك ، لا عش لك.

.. حتى العصافير... والحمام ، والطيور المهاجرة لها اعشاش دائمية.

ان الذي يجري في بلده الان ؛ لهاث مسعور متنوع الغايات ، مزاودة ومضاربة في الاسعار ، وأستحواذ على الاراضي المتنوعة ، زراعية كانت او سكنية ، وحتى اراضي المقابر والتي رأها بام عينه كيف يتاجرون بها ، واراضي منحة الشهداء لم تسلم من المضاربات في أسعارها من قبل سماسرة لا يخافون الله والضمير، بل وتستبدل بأرض وعالي العقار في مدينة الضباب والخليج ، .. أغتناء .. بأغتناء .. أسعار خيالية وارقام ، وللفقراء والمهمشين ... وتحسين اوضاعهم المعيشية بالوعود والمواعيد.

ويتحدث عادل مع نفسه :

- تستطيع في الحياة الدنيا أن تستأجر بيتاً أو قصراً ، ولكن أتستطيع ذلك في الحياة الاخرة . أعمل لدنياك ، .. أعمل ورسول الله (ص) يرهن درعه لاجل الاطعام . أين انتم من هذا كله ، اين ؟.

يقول عملاق الروائيين الروس والمفكر الاخلاقي وداعية السلام والمصلح الاجتماعي ليو تولستوي :

- انك لا تستطيع أن تحوز قصوراً شامخة من طريق العمل الشريف.

فدع كفاءاتك وتواضعك وخلقك وموضوع الوطنية يفيدك بقشة "تبن " او طابوقة " لبن" .

تنهد ... ودندن بصوت به لم يحرك شفتيه كأنهما التصقتا ببعضها بمسمار ؛

غريب الروح ..غريب الروح

لا طيفك يمر بيها

ولا ديره اللي تلفيها

وغدت وي ليل هجرانك ترد وتروح

وعذبها الجفه وتاهت حمامة دوح

آآه ، غريب الروح غريب الروح .. من أغنية "غريب الروح " لحسين نعمة.

نزلت بثقل قطرات الدمع على فمه أحس بحرارتها ، كطفل يتيم خنقه بكاؤه. ..

أخذ سمك النهر يدور، يتقافز حول قطع الخبز الصغيرة التى يفتتها... والكل يتجارى وينجرف مع مجرى التيار .. يميلُ من حيث ما تميلُ ،

يسـير مع الريح ، مع المجرى ... مع التيار، او كما يسير هؤلاء الجدد من الناس، وانت الى أين تسير .

غاص بالتفكير .. من النهر الى البحر ، ومن الجبال والوديان .

.. بعد ان تغيرت معادلة الحرب العراقية الايرانية في ١٩٨٢ ، وانقلبت موازينها ، بدخول القوات الايرانية في الجانب العراقي واحتلالها اجزاء من الاراضي العراقية على طول الحدود من الشمال الى الجنوب ،حينها كنا شبابا،وتصور البعض بان احتلال هذه الاجزاء سوف يسقط النظام، الا ان العارفين الوطنيين في السياسية انذروا بما لا يحمد عقباه ، وما تلحقه الحرب بالوطن من دمار وكوارث وويلات على الاصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نتيجة استمرارها ، فطالبوا بوقف الحرب منذ بداية اندلاعها وعلى مدار السنين .

ليس هذا فحسب ، بل يجب ادراك نتائج تفاعلات ما بعد الحرب ، هذا الذي كنا لا ندرك مغزاه وصدق الوطنيون ، ادراكا منهم من فهم تاريخ الحروب والبلدان التي حلت بها هذه الكوارث وتجاربها للنهوض من الازمات التي مرت بها ، وكيف استطاعت بتظافر كل الجهود البناءة والنوايا الحسنة،بالارادة والادارة، بالتخطيط والخطط وبالبرامج للخروج من ازماتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الخانقة التي ولدتها هذه الحروب . وللشهادة والحق اشاروا حينها واوضحوا بان افراد الجيش العراقي هم ابناء العمال والفلاحين والكسبة وبسطاء الناس من العراقيين،واتخذ هؤلاء موقفاً وطنياً بعدم التماس مع الجيش، وموقفهم واضح بدون غمزة او لمزة.

الان نعتصر حرقة وألماً، لما نعانيه ؛ في حياة وعلاقات الناس نتيجة الوضع والواقع الاقتصادي - السياسي المرير المتردئ ، الـذي عاشـه

ويعيشه الناس ما بعد الحرب ، وما بعد السقوط . من جراء توقف عجلة الانتاج في القطاع الزراعي والصناعي (في المزارع ، المعامل والمصانع) ، عدم وجود فرص العمل ، البطالة في كل القطاعات ، الفساد الاداري والفساد المالي والفساد العام ، تردي أجتماعي وثقافي ، غياب الامن ، الآمان والاستقرار، تردي الوضع المعيشي للناس رويدا رويدا وصولا الى خطوط الفقر وادنى من ذلك . حيث لاذ البعض من الناس في العيش بالمزابل والمقابر،يجمعون ما تبقى من أكل المآتم والولائم .

يقول الامام علي (ع) :

- لا خير في أمةٍ تأكلُ أكثر ما تنتج.

يقول ماركس :

- عندما تسوءُ العلاقاتُ الانتاجية (الاقتصادية) في المجتمع تسوء أخلاقياتُ الناس .

قالت العرب :

- الجود من الماجود.

وللدول التي تريد بناء الانسان واوطانها،يقول معلم المسرح فنان الشعب ستانسلافسكي (١٨٦٣-١٩٣٨) مدير مسرح موسكو الفني :

- أعطني خبزاً ومسرحاً ، أعطيك شعباً مثقفاً .

أن ديمومة وتطور وأزدهار الامم والشعوب تقاس بمدى أنتاجها المادي القومي ،وبالعمل والانتاج يتطور الوعي الانساني الاجتماعي ، وما يحتويه خلاصة هذا الوعي(الكمي والنوعي) للمعلومات والخبرات

وما يعكسه الواقع، يصقل ويصفى ويقطر في الضمير الانساني ، يندي منه ويتطور . ويصبح الضمير الوجداني هو الكابح عن عمل الشر ، والانسان لم يخلق لعمل الشر بل لعمل الخير.

فالوعي والضمير هما اللذان يحددان توجه الانسان والناس والمجتمع وسيره ومسيرته في طريق التطور والازدهار ورقي العلاقات والاخلاق ، في الاقتصاد ، السياسة ، الاجتماع والثقافة ، عمل الخير للانسان وسعادة المجتمع في العدل والحق ، ويوصلك حتى للايمان الصحيح.

لا أدخنة لمداخن المصانع ولا حركة للمكائن في المعامل ، أو تلوح بدلة زرقاء ، لا صوت لفيروز في الصباح ولا أغنية في المساء ، لا ماشية ترعى في المزارع ، لم تلتق بفلاح أو مزارع ، ولا ناهدات سمر أو نسوة يجتمعن عند النبع وساقية الماء ، ولا دخان لتنانير القرى يتصاعد في عنان السماء.

فاي عمل وأنتاج في العراق منذ الحرب الى فترة ما بعد السقوط ولحد الان ، وماهية ونوع العلاقات التي تربط الناس في المجتمع . اليس كل ما تقدم هي الاسباب التي اوصلتنا الى هكذا مستوى من العلاقات في المجتمع.

اراد من كل هذه المقدمات ان يولد لنفسه قناعات مؤقتة لتقبل الواقع ما بعد السقوط،وليبتعد اكثر عن المقولات والتحليلات،النظريات والتجارب لبلدان مرت بحروب ،وتشابهها مع الاوضاع التي تدور بوطنه ، ولكي لا يتهم بأن افكاره غريبة ، ولاسيما أنه اصبح بتمرس يقرأ ما في الوجوه من ردود أفعال تشعره بانه يتكلم في وادي وهؤلاء المتنفذين

المنتفعين الجدد وأهتماماتهم في وادي اخر ، وماذا يريد بالضبط لا يفهموه.

الطامة الكبرى عندما يحين موعد الخرسانة ، ان تدعو مهندسا او موظفا من الهيئة ليحضر صب الخرسانة ويطلب ان ترسل له سيارة لنقله وايصاله لعدم استخدامه سيارته الخاصة والالتهاء بتهيئة العشاء او الغداء وان تجهز مكان الصب وازالة المركبات التى بجوارالسياج ، يسبقها استحصال الموافقة الامنية بارقام الشاحنات لنقل الخرسانة وان اختلف الارقام عن طريق الخطا بالطباعة فتلك مصيبة بعدم ادخالها وتأخير الشاحنات الاخرى مما يدعي الوصول الى نقطة التفتيش لمتابعة الخطأ ، وان تهيئ قوالب الخرسانة لاجراء فحصها من قبل المختبر، وكل ذلك يقتضي توفير الوقت والجهد والاعصاب ، الا انه ورغم هذه العراقيل والصعوبات يطلب منك المهندس بشكل مباشر بدون مقدمات على مجيئه للموقع مبلغا من المال لان راتبه قليل لا يكفيه.

يقول عادل بنفسه وبهذا الخصوص :

- هذا ليس بعمل هندسي، له صرف العمالة والمبالغ ولكل بند من بنود العمل ، وهذا ايضا يجب ان يدلي بدلوه الحاج المهندس ممثل المالك . والخروج بحل لتفادي هذه الصعوبات وتوفير العمالة اللازمة لاتمام الاعمال على احسن وجه بشكل هندسي ولائق بالمبنى .

وذات مرة اتهمه احد المتنفذين الجدد امام مدير هيئة الاستثمار :

- بانه قد ترك المدينة اكثر من ثلاثين عاماً وجاء بافكار علمانية .

أجابه عادل وبعد معرفته المسبقة ، بان المدير خريج رومانيا ولم يدركها هذا المتنفذ لجهله :

- اذ كنت تحسبها تهمة ، فلي الشرف ايضا بها ! .

فبأي مستوى ووعي وعلاقات يتعامل بها هؤلاء الجهلاء اللاهثـون الجدد مع الناس،ومن اعطاهم الحق والسماح بذلك . وبشتى المسمـيات يصلون الى سلطة المال ، والكثير من الناس الحقيقيين ناكري الذات ، ذوي الفقه والعلم والاخلاق ، الادب والفن ، السياسة والاقتصاد ، حب الوطن وخدمة الناس ؛ هم من المهمشين المبعدين المنسيين ، والذين لا حول لهم ولا قوة .

ويقسم عادل :

- بالله بانني وبام عيني قد رأيتهم يمارسون الفساد والكذب بعينه ، ومن الظاهر ان كل هؤلاء تربطهم فيما بعضهم خيوط اخطبوطية ، فمنهم من يسهر ليالي الانس والورق وعند مـراجعته الـدوائرالـرسمية مؤمنا يؤدي الصلاة في اوقاتها وطنيا تهمه مصلحة الوطن والمدينة .

في فترة متأخرة التحق بالشركة شخص عراقي كربلائي وابليس ايراني عمل كمحاسب لا يحمل اية شـهادة تثبت ذلك ، يشابه الحجي المهندس في سلوكة وغلـوِّه بزيارة الامام وزيارة مقاول الخرسانة ما بعد العصر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد فترة طفحت للسطح رائحة اطماعه المتدنية والدنيئة ، صرح بها المجهزون المحافظون على علاقاتهم وسمعتهم التجارية في المدينة ، مما ادى الى رفضه من قبلهم ، اثناء طلبه أوشراء المواد. وبعد فترة تم فصله ورجوعه الى

ايران ، بعد ان وجدوا نقصا في الحسابات ، وتقاضى بفترة تواجده في النجف رواتب عالية يحلم ان يستلمها هناك .

حينما يتكلم عادل مع البعض من هؤلاء المتنفذين يكون جوابهم :

- أتعلم يا حاج ؛ لقد مررنا بحروب وضيم وتهجير ، منعونا من أقامة مواكب عشوراء ، وراتب الموظف فينا " طبقة بيض" .

ويجيبهم عادل :

- بان النظام سقط وانتهت سلطته وظلمه، ولكن عمل الدوائر الحكومية جيد ولا احد يستطيع ان يعمل السوء او التصرف السيئ .

من خلال حياته وهجرته ومعيشته المتواضعة وتجربته ومعاناته يستطيع أن يميز ما بين الهجرة والمهجر والتهجير، العيش بفقر وعوز وكفاف في الغربة ما قبل الحرب والسقوط وما بعدهما من المهجرين ، وأخرين ..على الحدود عراة هلعين ، وأخرين تعلموا المكر والحيلة .. أخرين ، ويعلم بان بطوناً أتخمت بـ(اللولة كباب) وزواج المتعة وابداع بقصص حور العين، ويعلم بأن رعاعاً همج ونكرات كالحرباء خلعت ثوبها الزيتوني وتلبست زيفاً وزوراً بلباس الطائفية والدين وتعلمت المكر والحيلة والخداع واغتنت في دول اللجوء الاوربية وفي الوطن بشتى الألاعيب والتزوير .

ويعلم بأن هنالك مجتمعاً عاش حربا عالمية وحصاراً وجوعا كالمجتمع السوفياتي مثلا فترة الحرب العالمية الثانية وحصار المدن ، حيث كانت تعطى للفرد قطعة خبز أسود وزنها بعض الغرامات ولايام عدة .

كفانا تزيّف كلمة الحق بالباطل .. كفانا .. كفانا ، كفى نبكي على ذكرى .. ومنزل . والناس قد تعلم ؛ بحجة البكاء قد أمليتم بطونكم

وخزائنكم وعالي العقار، في الوطن أو في دول المهجر والجوار ، ومؤخراتكم لا تحسن الجلوس الا في مقاعد سيارات الدفع الرباعي .

يضيف عادل بحسرة وألم :

- هنيئاً لكم تخمة الظلم والظلام ، أتعلمون ستشرق الشمس كعادتها ويسطع نورها "طوال" النهار ، ولكل ظالم نهاية .

يكرر ويخاطب نفسه :

- تبا لك ولوطنيتك ولصراحتك .

امضى الوقت كله على ضفاف النهر في الكوفة ولساعة متأخرة من الليل ، بعد ان تشبعت ضلوعه بهوائها العليل الضارب من البساتين .

رجع الى الموقع عند الضحى ، جمع اوراقه المهمة وحساباته وحاسبته ووضع المفاتيح في المكتب واطلع الحرس بذلك ، وقرر ما قرر، وذهب لشراء تذكرة سفر وجهتها الى الامارات .

استجمع كل قواه وجلس يفكر بصحة قراره حيث لا يزال هناك متسعا من الوقت لالغاءه ، حيث العمل بوطنه الذي جاء من اجله برغبته وجهده الذي بذله في تحديد اركان المبنى وعملية الحفر ونقل كميات هذه الاتربة هائلة الكمية وخطورتها وصب الاساسات وحتى خروج جزء من المبنى من مستوى ما تحت الارض ، وعلاقته التى تعززت بالمدير التنفيذي للشركة ومعرفته وصلاته بالسوق وما بين العمل مع هؤلاء السراق اوالسكوت على الخطأ وهذا الامر من اصعب الامور التى لم ولن يتساهل في تنفيذها في اي مكان وزمان وجد فيه .

بعد ان احاطه العمال متألمين لسماعهم بنية سفره وانهم تعوّدوا عليه ومن بعده ستكون لهم مضايقات من هذا الايراني الغبي ومن متطلبات الحجي المهندس .

ويتساءل :

- عجبا كيف وصل اليهم هذا الخبر؟ .

- أممكن قد وصل اليهم اثناء محادثته مع موظف قطع التذاكر في شركة السفريات القريبة للموقع !.

قارن مابين البقاء والحل العقيم اوالرجوع فاختارالاخير حفاظا على حياته وما بين الذي يشغله ؛ مالذي يجري داخل العراق وتعقد الوضع والتغير في طبيعة وشكل العلاقات داخل المجتمع العراقي الذي تركه في السبعينيات .

ترك المهندس (الحجي) في الغرفة الثانية وودع المقربين له،اخذ حاجياته وتوجه صوب ا لمطار .

يؤكد عادل وحسب تخميناته يقول :

- كل ما كان يجري في الموقع وما يتعرض له عادل من مضايقات وما يعانية من صعوبات ينقل الحجي المهندس كممثل للمالك مع مقاول الخرسانة التقارير بشكلها السلبي وحتى بدون اطلاع المدير التنفيذي عليها ومن الممكن ان يكون له شريكاً ، وهذه كانت التخمينات الاولية والتي اثبتت صحتها واتضحت من خلال مقتطف الاخبار، حيث لا يعلم مدى وسر هذه العلاقة فيما بينهما، ومن الممكن والجائز بان دفع المبالغ للخرسانة التي يزود بها المشروع او يصرفها لهم مثلا في

شراء قطع في المقبرة ، تدفع وتصرف او ترد له بصيغة تجارة ما او شراء عقار او سيارات الدفع الرباعي في دول الخليج او دول الضباب، ولا يعلم بها الا الله والبالغون في العلم .

تناقلت الاخبار بان المهندس (الحجي) أُبعد عن ممثل المالك واتوا بموظف اخر يديرعملية اقامة هذه العلاقات وتشعباتها وخفاياها سواء بالاحزاب الحاكمة او بمجلس النواب ومجالس المحافظات او مع الجهات الرسمية فله المزيد من العلاقات واكثر تحركا ويداه مفتوحتان للهدايا واكثر وجاهة ولباقة من الحجي المهندس (ياحافر البئر لا تغمك مساحيها اخاف الدهر يندار وانت تقع فيها) ، هذا الذي جرى ، وان حبل الكذب قصير. ومن يخدع الناس لا يخدع الله ، " يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ".

يقول عادل في قرارة نفسه وبفخر :

- طرد السيد الايراني شر طردة ولحق به (الحجي) بكفنه الذي تلوث بكذبه وتأمره وامسيت انت مرفوع الرأس، اردت ان تخدم الوطن الذي سلبه الطامعون وسرقوا الاحلام ورجعت لبلدك مرة اخرى وضحيت وعملت بنزاهة وبنظافة اليد والضمير وبظروف لا تحتمل وخرجت بقرارة نفسك وامسيت مرفوع الرأس بتجربة افادتك في البحث عن الاسباب التى اوصلت العراق الى هكذا مستوى والشعب متأملا ان يوصله النظام الجديد الى مستوى البلدان المتطورة ، الشعب الذي كان متاملا بأن يسود العدل الاجتماعي والعيش الكريم والذي حرم منه منذ انقلاب ١٩٦٣ وحتى الوقت الحاضر مرورا بتسلط النظام السابق الظالم والجاثم على صدور العراقيين لاربعة عقود من الظلم والاضطهاد والاعتقالات والسجون والمقابر الجماعية .

٦

نهض عند الضحى ، لم ينم لتغيّر المكان اولا، وثانيا يناقش بنفسه صحة قراره ، تقلب في منامة لعدة ساعات حتى بزوغ الشمس ، مرت عليه كل تلك المشاهد والتصرفات غير الحضارية المتخلفة ، وكل ما كان يتمناه هو ذلك الحلم الذي راوده منذ تخرجه من بغداد ونيله شهادة الدكتوراه ، ان يخدم وطنه ومجتمعه بما اوتي من علم وخبرة ان تأخذ مجراها ومكانتها الصحيحة .

أأرجع الى ما قاله ابو الطيب المتنبي في التكيف مع الواقع وتحدياته واستسلم له :

ما كل ما يشتهيه المرء يدركه تجري الـرياح بما لا تشتهي السفن

وعندما تكون الارادة والعزيمة :

تجري الرياح كما تجري سفينتنا نحـن الرياح ونحن البحـر والسفن

ان الـذي يرتجي شيئـا بهمتـــــه يلقــاه لو حــاربته الانــس والجــن

فاقصد الى قمم الاشياء تدركها تجري الرياح كما ارادت لها السفن

يناقش عادل مع نفسه قراره بالرجوع صباحا ومساء يتطرق في لحظة للوضع في العراق والعلاقات التي تجري في المجتمع :

- لقد بذلت كل ما في وسعي ولامنية قديمة ولحلم قديم،ورغم الصعوبات والعراقيل والتهديد بالقتل ، بعزيمة وارادة وهمة ونكران ذات وتواضع وحب للناس وللوطن عدت لوطني. الوطن الذي ومع كل الاسف ، لم يأوي ويحوي بناته وابنائه المخلصين والذين حملهم الدافع

الوطني لخدمة البلد وعادوا الى دول لجوئهم بعد ان فقدوا الامل في التغير والاصلاح السياسي،انها خسارة وطنية لهذه الكفاءات والتى يشهد لها في بلدان اقامتهم .

لقد عاد لوطنه لاسمى هدف هو خدمته وهؤلاء الجرابيع يواجهونه بالقتل لاجل حفنة من الدنانيرالحرام يتخمون بها ، وهو طيلة حياته لم يخف اذ كان على طريق الحق وهو الذي يسعى صوب تحقيق العدالة الاجتماعية في بلده والعيش الكريم لمواطنيه ، هكذا تربوا وهكذا انتهجوا وهكذا حلموا لايخيفهم هذا الرعد العابر .

يقول الروائي الروسي عملاق الادب والانسانية وداعية السلام ليو تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠) :

- الوطن ليس قطعة ارض ولا مجموعة من البشر ، الوطن هو المكان الذي تحفظ فيه كرامة الانسان .

يجلس عادل مع نفسه لساعات يناقش يحلل ويعاود الكرة الى ما وصلت اليه الاوضاع في العراق ليستنتج توفرالقناعة له ، ويؤكد وفق تجربته البسيطة واختلاطه مع الشيوعيين العراقيين ومواقفهم في المنعطفات السياسية قوله :

- حقا ان الشيوعيين العراقيين جبنوا بطينتهم حبا ومسؤولية لوطنهم ، حيث بذر فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي في نفوسهم ونهجهم ومواقفهم بذور الحب والمسؤولية اتجاه الناس والوطن . وان قضية الدفاع عن الوطن أزاء الاطماع والاتفاقيات الاستعمارية التوسعية نمت وطغت وغدت اعمق جذورا عند اعتناقه الشيوعية ، وقد عبر عن رأيه اثناء مثوله امام الحاكم بتهمة الشيوعية في ١٩٤٧ بقوله :

- لقد كنت وطنياً وعندما أصبحت شيوعياً صرت أشعر بمسؤولية اكبر تجاه وطني .

وفي جانب أخر يشير عادل بحـق :

- بان للمجتمع العـراقي قـواه المحركـه الرئيسية والتي تمثل بالحزب الشيوعي والطبقة العاملة ونقاباتها وتأثيرها على تطور المجتمع وزيادة الوعي الاجتماعي وفي النضال الوطني .

- ويعتبـر الحزب ومنذ نشوئه من اقوى الاحزاب المحركة في المجتمع العراقي بل وتصدرها في العهد الملكي .

- وكان الحزب مؤثرا بتحريك الشارع وقدرته بالتحشيد النقابي السياسي بتنظيم المظاهرات والاضربات التي انتزعت حقوق العمال ومطالبهم والاستنكار للاتفاقات الجائرة من فترة الاستعمار البريطاني والملكية حتى مجيئ حكم البعث .

ويذكر منها وما دونته كتب التأريخ والصحف العراقية وما نقله وتناقله الاهل والاقرباء والاصدقاء والمدرسة فيما بعد ، ويقول كلمته المعتادة دوما ؛ بان الشمس لا تغطى بغربال مهترئ ، والحقيقة تظهر وان طال الزمن مهما غلفها المنافقون بزيفهم وكذبهم :

- اضراب عمال الكهرباء في ١٩٣١، اضراب كاورباغي في كركوك ١٩٤٦،الاضرابات والمظاهرات التى طافت شوارع بغداد وبثت الحماسة في نفوس الجماهير والتي اسقطت معاهدة بورتسموث ١٩٤٨ وحصلت الاشتباكات راح ضحيتها العشرات من الشهداء وفي المقدمة شهيدة الجسر " بهيجة " واسقطت وزارة صالح جبر .

- وتوالت المظاهرات والاضربات العديدة في تحقيق المطالب المشروعة والحقوق العمالية وتحسين الاوضاع ومنها الاضرابات في شركات الصناعات العقارية ومصلحة الخياطة والقطن الطبي وفتاح باشا والسجاد والغزل والنسيج ومعمل السيكاير وفي فترة عقد الستينات شهدت اضرابات في الموانئ والسكك والنفط والزيوت والكهرباء والبناء .

- ومع عودة حكم البعث مرة اخرى في ١٩٦٨ ومعه اساليبه ووعوده وحججهم في التعامل مع الجماهير والعمال ومع الحزب الشيوعي والنقابات في الاستيلاء على قيادتها بتزوير نتائج الانتخابات كما اتبعها في فترة ١٩٦٣ وكانت اخرها في ١٩٧٨ حينما اصدر النظام قانون تحويل العمال الى موظفين، لغمط دور واسم الطبقة العاملة، وخداعه في اجراء الحملة الايمانية التي شملت مجموعة متنوعة من السياسات ومنحها للجماعات الاسلامية .

الا ان كل هذه الاساليب لن تنطلي على العمال بل العكس رسخت الوعي الثوري لديهم .

واستنتاجا لما تقدم وحسب تحليله المتواضع يشيرعادل لهذه المراحل الصعبة التى مر بها العراق وحملت التركة الثقيلة التي يعاني منها لحد الوقت الحاضر، وانعكاسها على مجمل الاوضاع والعلاقات الاجتماعية :

- بان للمجتمع العراقي قواه المحركة الرئيسية والتي تمثلت بالحزب الشيوعي والطبقة العاملة ونقاباتها وتأثيرها على تطور المجتمع العراقي وزيادة الوعي الاجتماعي وادارة الصراع بتعبئة الجماهير في النضال من اجل التحرر والتطور والازدهار والعيش الكريم . واصبح الحزب ومنذ نشوئه هدفا حاربته كل السلطات البريطانية وشركاتها

الاحتكارية والتابعين لها من الحكومات المتعاقبة والاقطاعيين ورجال الـديـن .

- وقـد سعت بريطانيا وقبلها العثمانيون باتباع سياسة " فـرق تسـد " لاقصاء وتفريق الشعوب من اجل السيطرة عليها ،والى تقوية الاحزاب الدينية بـدأ بدعمها للحركات الاسلامية ومنها لاخوان المسلمين في مصر وعلى شاكلتها من الاحزاب والتيارات والجماعات الاسلامية بكل انواعها في افغانستان ، وظهور الاحزاب القومية ودعمها لضرب افكار الاشتراكية والماركسية بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا وتأسيس الاتحاد السوفياتي الذي ناصرالشعوب التواقه الى الاستقلال والتحرر والعدالة الاجتماعية.

وتعاضمت هذه المساعي بالضغوط التي مورست من كل صوب وحـد بعد تغيـر النظام في افغانستان في اخراج الاتحاد السوفياتي منها تحت ذريعة المـد الاحمـر والالحاد والكفـر، الامرالذي ادى الي تجمع المجاميع بأسم القاعدة ومابعدها داعش ومـدها بالمال والسلاح ، وتهيئتها واعـدادها فيما بعـد لبعض الدول العربية ضعيفة الانظمة لاقامة الدولة الاسلامية فيها ، والتي اتخذت عناوين واسماء متنوعة والذين عبثوا في هذه البلـدان الضعيفة ، فسادا وقتلا واجراما ، وفيما بعد ظهرت الحقائق في كشف هذه المساعي في تضليل الشعوب وتأخر عجلة التطور .

- وعند تسلط الاحزاب القومية في البلدان العربية انتهجت الازدواجية في سياساتها الداخلية والخارجية ، من جهة تقمع الحريات والاحزاب ، ومن الجهة الاخرى تمـد يـد الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي ولاحقا مع بلدان المعسكر الاشـتراكي .

وتكاد ان تكون هذه السياسات متبعة في البلدان العربية ومنذ بدايات نيلها الاستقلال من المستعمر البريطاني الى اخر ما سمي بالربيع العربي وليس اخرا ، حيث تدهورت الاوضاع السياسية والاقتصادية فيها. وزجت بالعراق بحرب مع جارته ايران لثماني سنوات وكان وقودها ضحايا العمال والفلاحين والشغيلة ومن البلدين.

وعلى الصعيد القومي افتضحت وافرغت شعارات العروبة والقومية التى كانت تتبجح بها في تحرير فلسطين والقدس بفترة حكم جمال عبد الناصر في مصر وحكم حزب البعث في سوريا والعراق . وامسى المواطن في تناقض وحيرة باختيارها وتصديقها .

ويؤكد عادل على حقيقة :

- بمقدم ثورة تموز ١٩٥٨ وقيام الجمهورية في عهد عبد الكريم قاسم واسقاطها حكم الملكية والاقطاع والذي ساد فيه الفقر والتخلف والجوع، والقيام بالانجازات الكبيرة والمهمة كتوزيع الاراضي على الفلاحين وسن قانون الاصلاح الزراعي وتطورالصناعة ، شملت هذه المنجزات كل نواحي الحياة ، الامر الذي ادى الى انتعاش الاقتصاد الوطني وتأثيره على مستوى المعاشي للناس وانعكاس ذلك على تطور العلاقات الاجتماعية التى بنيت في اجمل صورها سابقا.

اي بقيام الجمهورية ولخمسة اعوام من عمرها وعملها وانجازاتها وضعت وشُرعت القوانين وتأثيرها على العلاقات في المجتمع حيث اصبح الناس يعملون وينشطون ويدورون حول هذا المجال والاجواء وبفلك هذه القوانين واصبحت ضمن المعتاد بالحس والموقف الوطني وبافتخار،لان الانسان سد احتياجاته ومتطلباته الضرورية من المعيشة في ظل النظام الجمهوري ، لذلك سادت علاقات الالفة والمودة والحب والاحترام واللحمة المجتمعية تغطيها عباءة الوطن والوطنية ووسعت

لكل اطياف المجتمع بقومياته واقلياته وطوائفه بعيدا عن الطائفية والنعرات والنزعات القومية والشوفينية .

من ثم يعود بذاكرته :

- ايام الستينات تشاهد النظافة في الشوارع والدوائرالحكومية والمدارس، والازقة وحينها تجتمع بنات المحلة اوالزقاق "الدربونة " للقيام بتنظيفها على احسن وجه تفوح منها رائحة "الاسفنيك " الذي يخترق الخياشيم من على البعد ويجلسن باحتساء شاي العصر في ازقتهن النظيفة كانها مقاهي تطل على الشارع ، يتبادلن اطراف الحديث واخبار الاقتران والنكتة والضحكة الحلوة والابتسامة الجميلة تعلو ثغرهن وبفساتينهن الجميلة كانهن في حفلات العرس .

تقول "إلِف شافاك" الكاتبة التركية :

- نكبر حين يعصف فصل الخريف بعلاقاتنا ، ويتساقط البشر من حولنا فجأة .

- ونكبر عندما نتمسك بأذيال ضحكة زائفة مع شخص زائل .

ولها القول ايضا :

- يوجد نوع واحد من القذارة ، لا يمكن تطهيرها بالماء النقي ، وهي لوثة الكراهية والتعصب التي تلوّث الروح .

ويشير عادل :

- في فترة الجمهورية ، كانت هنالك قوة المثل في المجتمع حينما تشاهد عبد الكريم قاسم بنشاطه الدائم ، وهو يغرس شتلة او شجرة

بمسحاته او قص الشريط في افتتاح مشروع جديد ، وكم من الشوارع والساحات غرست بها الاشجار من قبل عامة الناس بدافع وطني داخلي في النفوس، ونحن الصبية اعتدنا على هذا العمل واحببناه (الكل يعمر ويبني) ونمى الشعور الوطني في نفوس الجميع شكل مباشر وغير مباشر، عن طريق العائلة والمدرسة والشارع والمجتمع .

- وفي ظل حكم البعث وحروبه العبثية واضطهاده وارهابه واجرامه ومعتقلاته وسجونه ومقابره الجماعية (كان الزوج يخاف زوجته بادلاء اي شيئ يعرضه للاعتقال اوالاعدام،وللحائط اذان) ، وتدمير الاقتصاد العراقي ، وصلت رواتب الموظفين بما يعادل سعر (طبقة البيض) ، واستهتاره بمقدرات الشعب وانعكاس كل ذلك على المستوى المعاشي السيئ للناس ، وبالتالي على مجمل العلاقات الاجتماعية .

وتدهورت وبرزت كل الرذائل من النفاق والوشاية والخشونة والجفاء والجلف والعزلة،واصبح الانسان يخاف من الغد بأنه لا يعيش اليوم القادم ولا يأبه ماذا سوف يحدث له وتناقص الاحساس والشعور بالوطنية والواجب الوطني ، اضف الى ذلك أزدواجية الشخصية للفرد العراقي وتذبذبه في اتخاذ الموقف الجريئ والعادل ما بين الحضارة والبداوة .

يقول عادل في هذا الصدد من ايام الحروب :

- سابقا عندما تكون هنالك وفاة او جنازة يتألم ويحزن الناس لهذا الفقدان يحضرون المأتم ويقفون في العزاء لثلاثة ايام مواساة لاهل المتوفي ، لكن في وقت الحروب ، وتزايد الالاف من الضحايا والقتلى من جبهات القتال صباحا ومساءا ، وفي بعض الاحيان لا يسمح لاهل المتوفي بأقامة مراسيم العزاء ، مع دفع ثمن الرصاص .

وطغت الخشونة والقساوة في القلوب ولم يعد ذلك العرف المجتمعي المتبع سائدا بين المعارف والاصدقاء واصبحت العملية برمتها مظهرا عاديا خاليا من العاطفة الانسانية ، وقد يدفن المتوفي والناس لا تعلم بوفاته ولا تحضر الجنازة ولا الفاتحة ابتعادا عن المشاكل التي تثار لاحقا من قبل رجالات الامن والاستخبارات .

- وما بعد السقوط ٢٠٠٣ ساءت الاوضاع ، امتدادا لما تركه حكم البعث واتخذت اشكالا اكثر تعقيدا نتيجة لخلو الساحة من الاحزاب المحركة للمجتمع حيث زجت في السجون والمقابر الجماعية في النظام السابق،والارهاب والقمع المستشري،وتردي الوضع الاقتصادي والاقتتال على الهوية وظهور المليشيات المسلحة الطائفية والمنفلتة منها من العراقيين والاجانب ، وتنظيمات ومليشيات القاعدة وداعش المتخلفة والمجرمة .

الامر الذي ادى بالعراقيين الى الهجرة والغربة وافراغ الساحة ، تعطلت المصانع والمعامل والمزارع عن العمل واغرقت السوق بالبضائع الاستهلاكية المستوردة من دول الجوار واحلالها بدل المنتوج الوطني ، بطالة الشباب وعدم توفر فرص للعمل ولجيوش الخرجين من الجامعات ناهيك عن العمال والكسبة واتساع الهوة في المجتمع بين الاغنياء الجدد واصحاب العقارات والفقراء وتبوء رجالات الدين باسم الطائفة ناصية القرار السياسي والاقتصادي وهي منظومة محمية من قبل الدولة ، وانتهاجها ومنذ ١٩٦٣ الى اساليب التضليل الفكري.

وصيغتْ الفتوى السياسية في ٢٠ شباط ١٩٦١والقائلة " لا يجوز الانتماء الى الحزب الشيوعي فان ذلك كفر وإلحاد" خصيصاً لتحدث شرخا في جسد المجتمع العراقي لم تندمل جراحاته لوقتنا الحاضر،

والحزب منها براء حيث يراعي الخصائص الوطنية للمجتمع في كل برامجه ، ويحترم الشعائر والطقوس الدينية وزد على ذلك بان اغلب قيادته من العوائل الدينية العراقية المعروفة ومن السادة الموسويين كسكرتير الحزب سلام عادل (حسين شريف الرضي الموسوي) وباقر ابراهيم وغيرهم في مدن كربلاء والنجف والكاظمية والجنوب ، وابناء المشايخ الدينية في المدن الاخرى ، واستغلها القوميون والبعثيون.

وسخرت له دور النشر والفضائيات لتعميق الفجوة بين الجماهير وتقبلهم افكار الاشتراكية وأدعت :

- انها معركة الكفر مع الالحـاد !.

والاحزاب القومية بأدعائهـا :

- بانها معركة العروبة مع الشعوبية !.

وبمجمله يصب في تزييف الوعي الاجتماعي وحرف الصراع مستغلة الامية والجهل السائدة في مجتمعنا وانعكاس ذلك على معيشة الناس وعلاقاتهم والتي اتخذت اكثر خشونة وقسوة وجشاعة وتغلفت بغطاء الطائفية في معالجة جميع الامور.

- وهنالك حقيقة توضحت بان نهج هذه الانظمة كان موجها لخنق الطبقة العاملة وحزبها واضعاف وتهميش دورها في ادارة الصراع الطبقي من اجل التطور والتغير وفي نشر الوعي الاجتماعي منذ ١٩٦٣ وما اعقبها من المؤامرات وتوقف المصانع والمعامل والانتاج الوطني وتدهوره،وهيمنة الاقطاع من جديد،اثبتت الاحداث بان

الصراع في العراق هو صراع طائفي وقبلي وليس بصراع طبقي وكما اكدها الدكتور علي الوردي وقد اثبت الزمن صحة ذلك .

وهنا تكمن حقيقة اخرى حينما تسوء علاقات الانتاج (العلاقات الاقتصادية ، علاقات الناس ومعيشتهم) في المجتمع تسوء اخلاق الناس .

يقول عادل من خلال زيارته للوطن ورصده لهذه العلاقات التي شغلت تفكيره ولقربه لكربلاء والنجف ومن احاديث الناس المتداولة ، تجمعت لديه جملة من الحقائق الدامغة :

- تسنى لي متابعة بعض هذه العلاقات وجمع المعلومات للتوصل الى مدى بشاعة وتدهور العلاقات في المجتمع ، حيث ان رجالات الدين المتسلطين على القرار والعقار والاموال تأثروا بتجربة الايرانيين في مشهد ، بان كل هذه النشاطات والايرادات مرتبطة بالعتبات المقدسة والقائمين عليها .

حيث قامت العتبة بمصادرة اراضي في النجف وكربلاء انشأت عليها العقار والمزارع وحتى بعض المصانع ، ويأتون الى صاحب المزرعة ويفاتحوه بانهم شركاء ، يعطيهم ٢٠% من الارباح ويعطوه الحماية وهي الحكومة وهي المرجعية ، وهؤلاء المدراء تبرقعوا ببرقع ديني وتسلقوا هم وغيرهم من ممثلي الدولة وفي غفلة من الزمن وعلى حساب غيرهم من الخبراء والاقتصاديين والسياسيين الوطنيين العراقيين واصبحوا في مواقع المسؤولية ويعيشون معيشة الرفاه والغناء والجاه العاجي لم يكونوا يحلمون بها من قبل بل حملوا احقادا وكراهية سابقة ، ومن هنا تعاظمت الهوة وانعكست على مجمل

العلاقات الاجتماعية وتدهورها والتي هي اصلا متدهورة مما خلفه النظام السابق .

بهذا الصدد يقول الكاتب والشاعر المغربي أحمد عصيد :

- ان الاكراه في الدين يؤدي الى الخوف ، والخوف يصنع النفاق وكل انواع الرذائل ، كما يجعل المجتمع فضاء للعنف واللاتسامح ، ويخلق الاحباط لدى الافراد مما ينقص من مردوديتهم وانتاجيتهم لصالح الدولة.

يصف عادل انطباعاته الجميلة لزيارته الى جنوب افريقيا :

- كنت أظنهُ بلدا افريقيا عاديا فقيرا ، ولكن عند ترقب مدى العلاقات التي تسود المجتمع،وجدتهُ اكثر تطورا والعلاقات بين الناس ودية محببة يقدمون لك المساعدة والخدمة والترحيب والابتسامة على محياهم ،كل ذلك نتيجة سياسة التسامح التي انتهجها المناضل الافريقي نيلسون مانديلا في بناء مجتمع تسوده المساواة والعدل واسهاماته في " ثقافة السلام والحرية" .

مكث مانديلا ٢٧عاما في السجون ومنها جزيرة روبن آيلاند ، وبعد اطلاق سراحه انتخب رئيسا في١٩٩٤ بانتخابات ديمقراطية ، وتقاعد عام ١٩٩٩ وظل يمارس نشاطاته حتى وفاته ٢٠١٣ ، وبقى الناس ينتخبونه لحبهم له حيث كرس حياته ضد سياسة التمييز العنصري (الابارتايد) في بلاده . وهنا قوة مثل ليس في جنوب افريقيا فحسب بل تركت تأثيرها على بلدان افريقيا تخرج منها مناضلون يطالبون بالتحرر لبلدانهم من المستعمرين .

ان الاسلام السياسي في العراق بشقيه السني والشيعي لم يحققا اي نجاح يذكر للمجتمع على الصعيد الاقتصادي وتحسينه على مدار العقدين ومنذ ٢٠٠٣ ، بل يتحملان كامل المسؤولية بتفشي الفساد بكل انواعه وايغاله وانتشاره في مفاصل الحياة والمجتمع وامست الدولة في تعداد دول الفساد .

يقول سقراط العظيم :

- ان الدولة تشبه أبناءها ، فلا نطمع بترقية الدولة الا بترقية أبنائها .

في بعض المواقف تنتاب عادل حالات يشتد ويهتز لها ويقول :

- من كل عام ... قد زرع عبد الكريم قاسم في أسبوع الشجرة .

لا احد يزرع .
الكل يقطـــع .
لا احد يقتنـــع او يقنـع .
لا احد من الاخراسبع .
اضرب اكسر اجمع .
كل واشرب على عجل واشبع .
اضرب اكسر اجمع.
اشبع وارتـــع .
الكل هادي ومهدي وتحتار من تتبع .
افعل ما تشاء ، لا احد يسمعُ او احداً تسمع .

وفي العـراق ايضا ..

كم من الاطفال اليتامى من ينام في المقابر وهو جائع .

وكم من الموائد العامرة ترمى في الفضلات بدون وازع .

وكم من الاموال ترمى في الهواء وتنثرعلى صدور بائعات الهوى في الاقبية والسراديب وحانات ومراقص دول الجوار بدون

خجل او رادع .

تابع .. تابع ..

أعـد القـراءة وراجـع .

اذ كنت حـراً او بتابع .

اما الكتب .. وأذار فهي منـذ زمان اكلتهـا العـثة واهرأتها الرطوبة .. بُنيتْ واغلقـها طابوقُ الجـــدارن .

حتى الانجيل والقـرأن ونهج البلاغة ..

قـد كساها الغبار وأسدل عليها غبارالنسيان .

أهكـــذا هـو الذي يجـري .. في العـراق !.

ذات يوم دار نقاش سـابق بين عادل ومدير المؤسسة في دبي اثناء اخباره بنبأ وفاة حافظ الاسـد ، اجابه عادل بثقـة وباصرار بان نظام صـدام والذي تصفه ب (الريال) بالرجـل وتحبه :

- سوف يلحق به ويزول ولم يدم الظلم ولكل ظالم نهاية .
ويحدث عادل نفسه بنفسه واراد ان يوضح لمالك المؤسسة ردا لسؤاله وهوالذي لا يعير اهمية لاي نقاش بقدر اهتمامه بجمع الاموال والارباح وعـدها .. .
ويدعم عادل قوله :

- سـوف تنجلي الغمامة يوماً ، ويسـقط العـرش يوماً ، كما سقطت عروش الطغاة والامبراطوريات حسبما قصت ورويت في كتب

التاريخ والاساطير والملاحم للحضارات الانسانية المتعاقبة ؛ سومرية، بابلية ، اشورية ، فرعونية ، اغريقية ، رومانية ومن حضارات الهند والسند والصين الى تطوان،سقطت ملوكها وقادتها ومعها آلهتها واصنامها وكهنتها.

وفي تاريخ الحروب والانتفاضات والثورات للعبيد ، لفقراء الكادحين والفلاحين وبوصلتهم مبادئ الحالمين في ؛ المدن الفاضلة ، العدل الاجتماعي والحياة الحرة الكريمة. وفي كتب الاديان السماوية وقصص الانبياء من آدم وحواء الشجرة والشيطان،رحلة ابراهيم الخليل وماء زمزم ، عرش بلقيس وهدهد سليمان ، عصى موسى والوادي المقدس ، عيسى بن مريم وآل عمران ، وصبر يعقوب على يوسف والسنين العجاف والكيل والميزان ، وقد رد يعقوب بصيرا ، ومن سفينة نوح الى مطرقة كاوة الحداد . ومن الرسالة النبوية ... الجاهليةواصنامهمن التمر ووأد البنات،غار حراء والهجرة والانصار، من التوراة والانجيل والقرآن الى نهج البلاغة .

وما ورد اعلاه بنهاية المطاف ؛ يتغلب الخيرُ على الشرِ، يقوى الحقُ على الباطلِ، ينتصرالعدلُ على الظلمِ ، يصرع العلمُ الجهلَ، يزيل النورُ الظلامَ . وسنرجع يوماً، سنعود يوماً .

وعاد عادل للوطن مرتين كعودة طائر العنقاء .

وعاد قسم من المنفيين الى العراق ثم رجوعي .

سقطت عروشُ الظلم

سقطت اقنعة الصنم

وماذا بعـد ؟..

ايزول عن الناس ركام الهـم والغمـم

وحياتهم تنحى عن العـذابات والالـم

ألم تسطر لوائح الحق والصدق والعدل بالقرطاسِ والقلم

أيسـاوى ذو العقـل أخَ الجهـالةِ والفطيـس ورأس الغنم

شـكراً وحمداً لخـالق الكـون لهباته من الخيـرات والنعـم

اتخمت منها بطـونٌ والفتات لم تذقها من السـواد الاعظم

ايلدغ جائع ومهمش ثانية أو يخير بلعبة الافعـى والسـلم

أتعـاد للعاقل على اذانه واسـماعه نشـاز اللحـن والنـغم

كلا و لا ؛ وما بقى بعمـرالشريف لا يبـدي الباطـل بنعم

ثم لتـسـألـنَ يـوْمئـذٍ عن النعيم .

يذكـرعادل وبحسـرة وألم عند زيارته للوطن وكان يراقب الزائرين له من الاقرباء والمعارف بعد هذا الغياب :

- في اليوم الاول غصت الغرفة بالزائرين وفي اليوم الثاني قل عـددهم وفي اليوم الثالث لم يتعدى بعض البنات واطفالهن بعد ان وزعت للجميع الهـدايا التى اجاد بها . لقد ناقش عادل هذه العلاقات الاجتماعية وهل هي مقتصرة بوضع العراق ام هنالك نفس العلاقـات في بلدان الجـوار الاخرى .

سألَ اصدقائه وزملائه في العمل لتبيان هذه الحالة والتي قد تكون مقتصرة على العراق وفق ما تعرض له من حروب وحصار اقتصادي، اكد له زميله صالح من فلسطين اثناء زيارته لاهله :

- وصلت الضفة الغربية وعندما علموا بقدومي اجتمعنا في بيت اخي وبعد الاستقبال والترحاب في اليوم الاول من الزيارة ، وزعت عليهم الهدايا التى جلبتها معي وفق امكانيتي ، غابوا عن الانظار في اليوم الثاني وظهروا عندما حان موعد عودتي .

وكرر زميله الاردني ما حدث لزميلنا صالح هي نفس الصورة ! .

ويشيرعادل الى ابناء الاخ والاخوات،يسألني احدهم وقد تخرج للتو طبيبا :

- خالي كم الراتب الذي تتقاضاه في عملك ، وكيف رواتب الاطباء في الامارات ؟، هل اشتريت لك بيتا اوتمتلك فلة او شقة ؟ ، وما نوع سيارتك التي تستخدمها ؟، وكثير من الاسئلة التي تتعلق بالجانب المادي فقط ؟.

وتقدم ابن أخيه والذي يعمل طبيبا ايضا وتوجه اليه بنفس الاسئلة ، والاثنان يتمتعان بوضع مادي جيد مقارنة بالاخرين :

- لماذا لم تمتلك شقة او بيتا هناك لحد الان وانت بهذا العمر ، وقد عملت لفترة طويلة في اختصاصك ودرجتك العلمية ؟.

اجابهم بألم وبلحظتها خطرعلى باله ما قرأه في رواية المعطف لغوغل وشخصية "اكاكي اكاكيفتش" وحلمه بامتلاك معطف جديد بعد ان خاطته الرقع ولم يعد صالحا لارتداءه . اذ لم يكن يطمح او يطمع

لامتلاك أي شيئ اذا توفرت له الحدود الدنيا من المعيشة ، كان ينظر للاشـياء وكانـها غير موجودة ، انها ليسـت له .

عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق لم يمتلك بيتا ، وكان مستاجرا لسكنه :

- لم افكر باشياء ليست ضرورية لي وليست موجودة ضمن تفكيري في الوقت الحاضر، وحيث يمكن الحصول عليها لاحقا عند الحاجة .

فنحن جيل مناضل متأمل حالم في المدينة الفاضلة والعدالة الاجتماعية، وقضيت طيلة حياتي بعيدا عن الاهل والوطن سخرت بالنضال في سبيل الوطن ، ولم اعرف الاسـتقـرار والراحة ومساعدة الاهل بتوفيرالسـكـن والزواج والامكانيات المادية كالتــي تتمتعون بها الان .

- ومع ذلك زرت الوطن مرتين وبذلت كل ما في وسعي متأملا باعادة ترتيب وضعي في التعيين في الجامعة او ما تقـرره تعينات رئيس الوزراء بصدد عودة الكفاءات العلمية والبقاء بجانبكم . لم يتسن لي ذلك، وعدت بخفي حنين حامـــلا الـوعـود والمواعيـــد الكاذبـــة والمجاملات الزائفـة .

كان يحلم خلال زيارته لبلده ، ان يقوم الاهل والاقرباء والاصدقاء باستقباله اسـتقبال المناضلين الابطال بالورود رغم علمهم بوجوده وظروفه في جبال كردستان لهذه السنين،ولم يناقشوا معهم حول توجهاته المستقبلية او يعرضوا عليه تقديم المساعدة التى يقدمها الاهل لابنائهم،وكان في ظنه بان تتغير الدنيا كلها ولا يتغير الاهل والمعارف والاصدقاء .

يناقش عادل بحســـرة وألم ازاء اسئلة ابناء اخيه واخته وبعض الجالسين من الاقرباء والموجهة اليه ويجيب بنفسه :

- ان اسئلتهم منطقية وواقعية،ماذا قدم لك كل هذا غير الغربة والتهميش والذل والعوز والكفاف،وبعمرك هذا لم تفرح امك يوماً بقطعة قمـــاش جلبتها من تلك الـديــار.

ويستطرد :

- لا عش لك ، لاركن لك ، تبا لك. ..

"وتبت يدا ابي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب "

تبت حسن النوايا .. وتبت حسن نواياك. ..

أقــرأ .. أقــرأ ، تبا لك.
وتبا لوطنيتك الحقة ؟.
حـلل ... ما شـاء عقـلك من التحليل واعـد القـراءة ، تبا لك .
يوماً ... سوف يسئل الصغار بما قاله الكبار .
عاد الى الامارات خائبا متألما لما وجده وتلقاه من صور حزينة ومؤلمة عما يجري في وطنه وخصوصا ما بعد ٢٠٠٣، بتردي الاوضاع السياسية الاقتصادية والاجتماعية وانعكاس ذلك على كل نواحي الحياة.

عمل بنفس الشركة وبنفس العرض القديم دون اي تعديل في عقد العمل استغلالا للوضع القائم ، حيث ان الشركة ملزمة بوجود مهندس مدني امام البلدية لمتابعة المشاريع المنوطة بها من خلال مهندس

الشركة، حيث ان جميع المهندسين تركوا العمل بالشركة لحصولهم على عروض افضل ونقلت اقامتهم لعملهم الجديد .

وانيطت به متابعة المبانـي الكبيـرة لسكـن العمال وصيانتها والتصليحات اللازمة لها ، وتحتوي هذه المباني على عدد كبير من الغرف تتكدس بها كل اجناس العمالة من دول شرق اسيا ، الهندية والبنغالية والباكستانية والفلبينية والافريقية العربية،وكذلك جمع الايجارات الشهرية من عدد الغرف كل يوم وعلى مدار الاسبوع ، اضافة للمراجعات الرسمية وبعض العقارات الاخرى في منطقة بعيدة عن المركز .

استمر بعمله وكالمعتاد بدون استراحة الاسبوع حيث تنقل الايجارات يوم بيوم الى المكتب ، ونظم عادل حسابات هذه الايرادات وتدقيقها والتأكد منها لوجود صعوبات الاستلام من قبيل التلاعب والغش بالنقد من بعض العمال المستأجرين، ولكن قام عادل باحسن وجه لاداء هذه المهمة المضافة .

توالت الصعوبات والمصائب بقدوم فايروس كورونا المخيف ، حيث انتشاره في هذه المباني السكنية لتنوع العمالة ومدى تقبلها ومناعتها لهذا الفايروس ، ومع هذا ورغم اضطراب وخطورة الموقف في هذه المنطقة العمالية المكتظة بالسكن والعمالة ومواجهة المخاطر والعدوى المنتشرة وشد الاعصاب، استمر عادل بعمله بجمع الايجارات من هذه المباني ونقلها الى المكتب دون اللقاء اوالاحتكاك بالمدير والموظفين خوفا منهم من العدوى التي قد تصيبه ويحملها اليهم ! .

وجاء حظه العاثرعلى عجل حينما دهسته سيارة التاكسي وهو في الموقف امام المكتب ، واحدث الدهس كسورا مضاعفة في ساقه الايسر نقل على اثرها بسيارة الاسعاف الى المستشفى ، وفي ظل الارباك الحاصل من جراء اخبار انتشار الفايروس تأخروا الى ما بعد منتصف الليل في اجراء اللازم للعملية ،الجراحية، وبسبب عدم تغطية بطاقة التأمين الصحي لكلفة العملية التخمينية التي اعدتها الشركة للموظفين ، تحملها رغم الالام والوجع ولفترة اسبوعين ولم يخرجوه الا بعد دفع اجور العملية .

كان يتألم وترواده الكوابيس ليلا ، يصفها وكان ملقىً في حاوية القمامة في الشارع مغطاة بغطائها تتقافز على جسده الجرذان والعقارب والقنافذ والافاعي السامة لا يستطيع الحركة وحيدا ولا احدا لمن ينادي.

ومع هذا استطاع ان يدير اعماله في المشاريع من البيت عن طريق الهاتف النقال بعد خروجه من المستشفى ، وان تطلب الامر يحضر الى الموقع على كرسيه المتحرك والذي استمر به الى ان انتقل الى استخدام العكازات متنقلا بين المباني لسكنة العمال والمكتب الرئيسي ، ورغم هذه التضحية والمغامرة بصحته وخطورة ووعورة الطرق وخطورتها خصوصا ايام المطر وانقطاعها ، وجمع النقود للايجارات وجلبه الى المكتب يوميا ، لم يقابل هذا الجهد كلمة الشكر.

يوم الاستراحة يتصل به المالك في ساعة متأخرة من الليل ويسألهُ :

- متى تكون غدا ، وفي اية ساعة ؟ .

يرده عادل بالسؤال وبلطف :

- غدا يوم الجمعة يوم استراحتكم ! .

يجيبه المالك :

- ساكون عند الساعة العاشرة في المكتب .

يحضرعادل في الوقت المحدد ينتظره عند المكتب،وهو يحضر متأخرا عن الموعد كالمعتاد .

اصبحت متطلبات المالك وطلبياته تعجيزية وصعوبة تنفيذها ، سواء في التصميم والتنفيذ والكلفة اوبمراجعة البلدية لحذف المخالفات على المشاريع ، ومع ذلك يذلل عادل القسم الكبير منها ، ولم يعبأ لكل هذه الصعوبات والالم .

في هذه الاجواء ومع مهمة جمع الايجارات من المباني السكنية ، انيطت له مهمة المشروع الجديد من خلال عمالة مستأجرة وذلك لمغادرة العمال الشركة ، ومع هذه العمالة المستأجرة تكمن الخطورة من حيث عدم اهليتهم وخبرتهم والالتزام باجراءات السلامة والامان من الخطورة في العمل،وكذلك ان المواقع تخضع لتدقيق اقامة العمالة من قبل البلدية وفي هذا يتعرض المهندس عادل الى احراجات في غنى عنها .

بدأت اعمال الحفر والركائز واعمال الخرسانة والطابوق وعبر مقاولين ثانويين ، يرسم المالك بحذلقته صورة سهلة في عملية الدفع ويخبرهم بنفس الوقت ان ينفذوا اعمالهم بدون الرجوع الى المهندس عادل ، بل تمادى المالك بعدم الاستماع الى الملاحظات المقدمة ، مما يضطره الى تدقيق الاعمال والبقاء بالعمل لوقت متأخر، وهي مسؤولية مهنية وامانة في العمل وهو بهذه الحالة الصحية التي تتطلب منه الصعود والنزول باستعمال السلالم واستعمال الاجهزة الهندسية ،

حصلت اخطاء في تنفيذ اعمال الخرسانة جرى تلافيها من قبله اثناء العمل وبعدها عند التشطيبات الخارجية ، هذا مع العلم بان الاتفاقية مع المالك ومكتب الاستشاري مقتصرا على انجاز الخرائط وبعض التعديلات المحتملة للتغير .

يسأل عادل نفسه :

- مالذي يجري وماذا حدث للمالك بتصرفاته امام المقاولين الثانويين ، في لحظات اخرى تـراه ودودا فرحـا حينما أتيه بجمع الايجـارات.

يسأل عادل المحاسب وهو الموظف الوحيد والمطلع على مجريات الامور واسرارها ، ومن المتبقين في الشركة :

- مالذي يجري بهذه المعاملة ، وانت الذي اصبح الوحيد الذي يدير اعماله وتعرف اسراره لوجودك طيلة الوقت في المكتب وتراجعه في الامورالمالية التي تخص الشركة .

يرد المحاسب :

- والله انا مثلك لا اعلم مالذي يجري .

وفي يوم تعيس حيث احس عادل بالادرار المستمر وتلونه ، اخبر المالك بمعاناته فنصحه مستهزا :

- اشـرب ماء كثيرا .
اشتد لـون الادرار وطغى على وجهه وتلونت عيونه بالاصفرار مما اضطره مراجعة الطوارئ في المستشفى ، اجريت له عملية في الليل ، ورقد في المستشفى لحين تبيان النتائج وابلغوه بالانتظـار .

ولسوء حظه ظهرعائق اخر انسداد في الوريد المغذي للمخ ، اتفق الاطباء على ضرورة اجراء العملية بازالة الانسداد وبعكس يتعرض الى جلطة دماغية .

يقول عادل :

- وانا في هذه الحالة النفسية والاضطراب ، وافقت مباشرة بدون تردد على اجراء العملية ووقعت على أجرائها ، وحاولت الاتصال بالمالك عدة مرات ولم يستجب ، مما اضطرني بالاتصال بابنه واخبرته بذلك ورجوته بعدم تركي ولا سيما بان بطاقة التأمين الصحي لا تفي بتغطية المصاريف التخمينية لهذه العملية ، وعدني خيرا لاجراء اللازم .

وبعد مرور فترة اسبوع على اجراء العملية والتي تسببت في حدوث نوع من الشلل في النطق ، اخبره الاطباء بان هذه الحالة تتحسن مع الوقت ، ولم تتحسن بعد .

رغم التداخل بين فترة العملية والعطل الرسمية بالاعياد وكذلك لعدم السماح له بالخروج حتى تمكنه من دفع مبالغ اجراء العملية ، مكث في المستشفى خلالها لحين مجيئ الخبر الصاعق اللعين في ضرورة اجراء العملية التى تصاحبها خطورات تاثيرات جانبية .
اخبروه بالاستعداد للعملية في استئصال المرض، وافق ايضا لاجراء العملية وسلمهم التوقيع بالموافقة.فتحوا بطنه بجرح كبير، لاقى الاطباء صعوبة في اتمام العملية ، اخاطوا الجرح واغلقوه .

يتألم عادل ويقول :

- مكثت فترة اخرى لحين دفع اجور هذه العملية،وبعد يومين من الاتصالات استطاع ابن المالك ترتيب المبلغ وفق علاقاته من قبل

جمعية خيرية بتخفيضه للنصف وبعدها اخلوا سبيلي الى البيت حاملا جرحي وألمي والمعاناة خلال فترة المكوث الطويل في المستشفى ، خرجت من المستشفى لا اعرف الى اين التوجه ، كذلك المحارب الضائع في جبهات الحرب والمملوء بجروحه وآلامه ، وبعد توقف الحرب لا يعلم في اية ارض يقف عليها ولا يعرف ماذا سيكون مصيره ، فقد اهله وذويه ، فالى اين الاتجاه والتوجه .

يؤكد عادل :

- بعد كل هذه الاجراءات وايام مكوثي لم يتصل المالك ، حيث كان يتصل في اي وقت وكل يوم في الصباح وفي المساء وحتى ساعة متأخرة من الليل يوقضني من النوم ، حول الايجارات واستحصال المبالغ او وجود مشكلة لمتابعتها في الدوائر الرسمية ، كان اسلوبه في العلاقات يوحي ببساطته ومودته ، فلم يكن يوما ان رفع صوته في التعامل الا في الايام الاخيرة .

- اصابتني الخيبة والالم وشعرت بالوحدة والغربة والوحشة لم اشعر بها طيلة هذا الزمن ٢٧ عاما من عملي في هذه الشركة ، اشعر بانني اعمل وكانها شركتي بالحرص والامانة على كل شيئ،من ناحية الاسعار والكلفة من قبل المقاولين الثانويين والتعامل معهم والسهر على تنفيذ الاعمال الخرسانية والتكسية وحساب كمياتها بشكلها الدقيق دون تلفيات وعمل التخطيطات التعديلية والتصميمية ، عملت وهذه هي امانة الانسان الملتزم وامانة المهنة،والكل يعلم من اخوته وباقي الموظفين بامانتي وحرصي ومسؤوليتي بذلك .

- امسينا نعمل في الشركة انا والمحاسب فقط بعد ان غادرها الكثير من المهندسين والفنيين الذين خصصوا كل وقتهم في تنفيذ المشاريع الاخرى والموظفين الاخرين ، والذين احسوا بان استمراريتهم بالعمل

في الشركة غير مجدي نفعا ، حيث ان العمال يأخذون كل شيئ بعين الاعتبار ويحسبون حسابه وهم بهذا لا تنطلي عليهم الممارسات التى تمسهم ، وهنالك قنصليات لبلدانهم تدافع عنهم وتحفظ حقوقهم ، وبصدد الالتزامات المادية اومسؤوليات اتجاه العائلة او دفع اجور المدارس وفواتير الماء والكهرباء كتلك التي يدفعها الموظف ، وتعيش اغلب العمالة الوافدة بدون عوائل،وبدون هذه الاستحقاقات،حيث يعيشون في غرف من مبنى سكن العمال التابعة للشركة.بينما الموظف تترتب عليه التزامات مادية كل شهر .

ويشير عادل :

- كان جميع العمال الهنود في الشركة او الخارجين عنها يتواصلون معي رغم عدم الالمام الكافي بلغة التخاطب ومن قبل الطرفين ، يطلبون زيارتي في المستشفى ويرسلون التمنيات والدعاء بالشفاء والخروج من المرض ، وذلك لعلاقتي الطيبة التى تربطني بهم طيلة العمل معهم في المواقع . وكان اغلب مهندسي البلدية يقدرون عملي وحرصي بالعمل ويقدرون وضعي الصحي بحكم الزمالة ولامانة المهنة التى تربطنا لسنين طويله حيث انهى قسم منهم خدمته في العمل وكرم بمستحقاته في نهاية الخدمة .

يقول عادل :
- ذات يوم اخبرت المالك بانه محظوظ جدا لوجود مهندسين جيدين يعملون في الشركة .
فكان جوابه :- اعرف ذلك .

وتوالت مغادرة المهندسين والفنيين تباعا من الشركة بعد تسليمهم المشاريع التي يشرفون عليها بشكل غير ودي وغير مرضي ما لم يستلموا كامل استحقاقاتهم. حيث بقت بعض الصرفيات لم تسدد لهم .

يذكر عادل احد العمال الهنـود الذي عمل في الشركة لمدة ٣٠ عاما وهو من اوائل العمال القدامى :

- بعد فترة الكورونا أصابه الاصفرار بجسمه، ويعلم بان بطاقة التأمين الصحي لا تغطي العلاج في المستشفى ، فطلب السفر الى اهله في الهند لغرض العلاج هناك ، سـافر وبعد يومين استلمنا نبأ وفاته ، لم يستلم مستحقاته لنهاية خدمته ولم ترسل لعائلته المبالغ المستحقة. وكان يقوم بكل الاعمال في بناية سكن العمال .
- وحدث نفس الشيئ حين مغادرة احد العاملين بوظيفة ميكانيكي الشركة واللجوء الى كنـدا هو وعائلته ، اصبح عالقا عند الحدود ينتظر ارسال استحقاقاته التي لم تُرسل فقط المواعيد . والكل يجري تحت علم المالك والمحاسب .

يقول عادل ويؤكـد :

- الذي جرى معي من اجراءات من قبل الشركة لا استطيع استيعابه وفق العلاقة الودية بالظاهر التي كانت تربطني بالمالك سابقا .
- حيث اتصلوا من قبل الشركة بالمستشفى واخبروهم بماهية المرض، اتخذوا القرار مباشرة بالغـاء خدمتي من الشركة والغاء اقامتي بشكلها التعسفي وانا ممدد على فراش المستشفى انتظر اجراء العملية .
- قررت الخروج من المستشفى بعد ان تعفن ظهري وتداوى الجرح ، وكلفوا جمعية خيرية بدفع هذه الاجـور ، لا اعرف كيفية التصرف باقامتي واقامة زوجتي ، واخبرني البعض من العارفين في شؤون

الاقامة، بان الشركة لا يحق لها الالغاء طالما هنالك تكفلي باقامة العائلة ولغرض الالغاء يجب القيام اولا بالغـاء اقامة الزوجة ثم يحق لهم الغـاء اقامتي ، ولكن كيف تم ذلك بهذا الاجراء السريع واصبحت ضائع الحقوق ومع زوجتي والتزاماتي الاخرى من سكن وفواتير الماء والكهرباء والتلفون الخ من المستحقات التي يجب تصفيتها .

- تمت تصفية الشقة وما بها من اثاث ومكتبة وأدوات مطبخ الخ واعطائها للجيران وللعمال وتسديد المستحقات الاخرى وتسليم مفاتيح الشقة للمالك .

- تم الغاء اقامة زوجتي والتى حينها دفعت فيها الغرامة مقابل مخالفة البقاء بشكل غير قانوني ، وعلمت بان الالغـاء كان تعسـفياً من قبل الشركة .

يؤكـد عادل :

- وانا في الحالة المرضية والنفسية وقفت حائرا لا اعرف التصرف والى اين وجهتي ووجهة عائلتي ومصيريهم ، انا استطيع الرجوع الى بلدي واتكيف مع الواقع ان كتب الله لي عمرا ، ولكن مصير عائلتي الصعب والمعقد، حيث عاشت العائلة ما يقارب ٢٨ عاما في الامارات ويعتبرونه بلدهم الثاني ولا يستطيعون التكيف والعيش في العراق ولان لغتهم ليست اللغة العربية ، والاهم عدم أمكانية العيش والسكن في مدن الوسط التي يغلب عليها التدين والتحجب .

- ابلغني الاطباء بمراجعة المستشفى وضرورة العلاج بالكيمياوي ، راجعت الطبيب بعد انتظار ممل،وبان من هيئته ومحابسه وقلادته

الذهبية وساعته اليدوية وتعامله غير المقبول يتحدث من مستوى اعلى الى مستوى ادنى غير مبال لاستقبال مريض بهذا المرض اللعين .

شرح عملية العلاج بشكل سريع وغير مفهوم بالكامل ، شكرته على هذا الاستقبال بهذه الخشونة والتعالي وابلغته باننني افضل الوفاة على هذا العلاج من بين ايديكم وطريقة التعامل،خرج الطبيب بعجل بسيارته الفخمة ولم يبد اي اهتمام لي والحالة النفسية التي انا فيها .

- اتخذنا القرار الاصعب الا وهو تشتت العائلة وانقسامها الى قسمين بعد هذا العمر، ورجوعي للعراق والتكيف والعيش هناك رغم كل شيئ، ولمراجعة المستشفيات في بغداد لغرض اتمام العلاجات المعلقة والتي رفضتها من جراء سوء تعامل الطبيب المتكبر ، وسفر العائلة والرجوع لمدينتهم التي تقع على الحدود ما بين روسيا واكرانيا وهو احسن الحلول السيئة ولكون لاحل اخر ازاء ما حدث لي من اجراءات تعسفية من قبل الشركة والتى لم تفكر بمصير العائلة ومستقبلها .

- قمت بدفع بعضا من اجور العلاج مما جنيته وكسبته من عملي خلال الثلاثة عقود .

سقط الصنم في بلده وتوالت سقوطا بقية الاقنعة والاصنام وجرفت معها شعارات الخداع والتضليل،وامست مفاهيم المدينة الفاضلة والعدالة الاجتماعية بعيدة المنال وصعوبة الوصل والوصال ، لا ركن له ولا سقف يأويه وتحت السماء ينام يعد النجوم .. وقد سرقت الاحلام..ولم تزين كردستان صدورهم بورود الياسمين او نوط ونياشين،واغتيل العدل والحق وتاهت الاخلاق غطاها التراب

وغبارالسنين والنسيان، ولم يعد ذلك الصباح يزهو باغاني فيروز يبهج النفوس وتصغي لها الاذان .

أيعقل هذا الذي يجري ! .

" ولا زال عادل يقوم ويقع وينهض من جديد رغم الآلام.. وضع يديه على جراحاته.. متأملا عنيداً لا يأبه بما فعلت به الغربة والايام، يحلو له شروق الشمس وتحلو له طيور النورس تتقافز، ترفرف، ترقص على ضفتي الفرات وتتهادى شموع النذور وأمنيات الناهدات الحالمات طافية على كربة خشب تداعب الموج عند الغروب وعلى دجلة عند مدخل المتنبي، تعيده لأيام الطلبة ... يتسللون فرادا في شارعه بعيدا عن العيون، يلهون، يتيهون بين كتب المعرفة والعلم والآداب والأخلاق والفنون"..